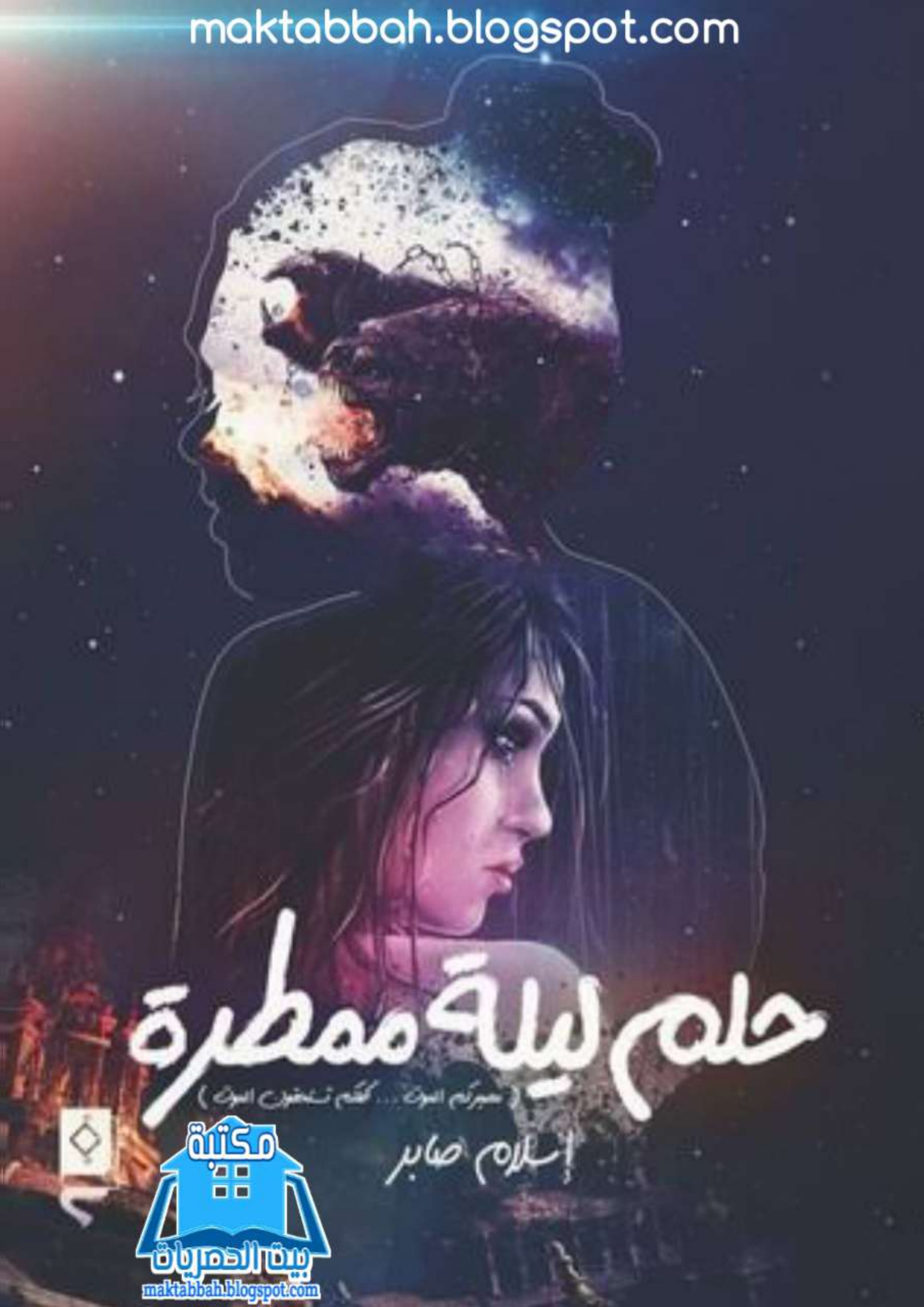

maktabbah.blogspot.com
حلم ليلة ممطرة
إسلام صابر
مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

1- ليلة مخيفة

بعد أن انتصـــف الليل، وفي هذا الوقت المتأخر، كان من الطبيعي أن تبدو منطقة الفيلّات -في تلك الحي البعيد عن قلب العاصـمة- سـاكنة مظلمة، حتّى أن أعمدة الإنارة الموزّعة بانتظام في شـوارعها لم تتغلّب على الطابع الموحش الذي تركه الظلام والصـمت، كأنها منطقة مهجورة لا يسكنها الأحياء.

وبسـرعة متوسـطة، ظهرت سـيارة من طراز حديث، تقطع شـوارع منطقة الفيلّات السـاكنة المظلمة، وقد أضيء مصباحاها الأماميان بالضوء العالي، وصدر منها صخبٌ كفيلٌ بإزعاج أي شـخص يقطن المنطقة.. فبداخل السـيارة، ووسـط الموسـيقى الصـاخبة الصـادرة من جهاز التسجيل بها، جلس شاب وفتاة في المقعدين الأماميين للسيارة في حالة من النشوة، تشي بأن كليهما شبه غائب عن الوعي، وكانا يضحكان بصورة هستيرية بصوت أعلى مما ينبغي.

استمر الصـخب لحظات قبل أن تتوقف السيارة أمام البوابة الحديدية لإحدى الفيلّات، والشّـاب يقول بصوت يكاد لا يُسمَع من صخب الموسيقى:

- الآن ندخل.

قالت الفتاة بصوت عالٍ:

- لا أسمعك!

مال بحركة مبالغة ليطفئ الموسـيقى تمامًا، فانتهى كل الصـخب فجأة في لحظة واحدة، ليقول بلسان بدا ملتويًا من أثر الخمر:

- لقد وصلنا.. وصلنا، الآن ندخل.

كانت الفتاة تبدو أكثر اتزانًا منه قليلًا، لذا فقد سألته:

- ومَن سيفتح لنا البوابة الحديدية؟

ابتسم ابتسامة عريضة ومدّ يده ليعبث في (تابلوه) السيارة، قبل أن تقبض أصابعه على شيء صغير، فقال:

- جهاز التحكُّم عن بعد بالطبع.

غمزت الفتاة بعينها وقالت ضاحكة:

- دون أن نحتاج إلى أحد.

ضـغط هو زرًا في جهاز التحكم عن بعد، فانفتحت البوابة، لتعبرها سـيارته بسـرعة أكبر مما ينبغي، قاطعة مسـافة قصـيرة، قبل أن تتوقّف أمام الدرجات القليلة التي تقود إلى باب الفيلّا الكبير، لتجذب يده فرامل يد السيارة، وهو يقول:

- أخبرتُكِ أنه لا يوجد أحد هنا.

ثم التفت إليها مضيفًا:

- لهذا جئتُ بكِ إلى هنا، حتّى نسهر ونمرح ونفعل ما نشاء بلا حساب.

تطلّعت إلى الفيلّا ببابها الكبير ونوافذها المظلمة، وسألت:

- أأنتَ واثق أنه لا يوجد أحد بالداخل؟

أشار إلى القيلًا، وقال:

- بالتأكيد، النوافذ مظلمة تمامًا أيتها الحمقاء، كيف لا تلاحظين شيئًا كهذا، في حين ألاحظه أنا وقد أسرفتُ في الشرب أكثر منك؟

فتحت الفتاة باب السيارة المجاور لها لتخرج دون أن تعلّق على ما قال، وألقت نظرة على الظلام الذي يكسو الموجودات داخل فناء القيلًا وخارج البوابة الحديدية المغلقة، وخطر لها أن المنطقة موحشة حقًا بشكل مخيف، قضمت أكثر طَرَفَيْ سترتها الغالية، وهي ترى الشاب يخرج بدوره من السيارة، ليقف وقفة مترنحة، قبل أن تستدير إلى باب القيلًا، وتسمعه يغلق باب السيارة، ثم تسمع الصوت المميز لجهاز الإغلاق المركزي الـ(سنتر لوك)، الذي يؤمّن إغلاق السيارة كلها.

واقترب الشاب من الفتاة لتتأبط هي ذراعه، فيصعدان معًا الدرج القصير، وهي تقول:

- أتعلم أن المنطقة هنا تبدو لي موحشةً حقًا؟

قال مبتسمًا:

- هذا هو الهدوء الذي أفضّله؛ أنا أكره الإزعاج.

ابتسمت هي أيضًا، وهي تقول:

- لهذا يبدأ يومك دائمًا بحلول المساء.

- أنتِ تفهمينني.

قالها وهو يدفع باب القيلًا الثقيل الذي انفتح بصرير مخيف، لم يُعره كلاهما اهتمامًا، ليدخلا منه إلى داخل القيلًا، فتمتد يد الشاب لتُشعِل أضواءها، ثم يدفع الباب الثقيل في جهد ليغلقه قائلًا:

- أخيرًا!

سارت الفتاة حتى جلست فوق أريكة فاخرة قريبة، وهي تقول:

- نعم، أخيرًا.. فقط أتمنّى ألّا يأتي أحد من أهلك قريبًا ليطردنا من هنا شر طَرْدَة.

لوّح الشاب بيده لها بما معناه أنه يتضايق من تشاؤمها، وهو يخلع سترته ليلقي بها فوق ظهر أحد المقاعد في إهمال، قبل أن يرتمي إلى جوارها، ويقول:

- أحضري لنا شيئًا نشربه يا (سلمى).

تطلّعت (سلمى) إليه في دهشة، وسألته:

- ألم يكفك ما شربتَ بالفعل؟!

قال في ضجر:

- الليلة الحقيقية بَدَأتْ للتوّ يا (سلمى)، وأنا أريدها ليلة مرحة.. بطريقتك السخيفة هذه سنفقد المرح كله، هيا، أحضري لنا ما نشربه.. ستجدين المشروبات هناك.

قالها وهو يشير بيده إلى المشرب، فقالت وهي تنهض في ضيق:

- أنتَ كسول حقًا يا (رءوف)، أتعرف هذا؟

واتجهت إلى المشرب، في حين ردّد هو في سخرية:

- الكسل سمة من سمات الحياة المُترفة، لو أنكِ تعرفين عنها شيئًا.

انحنت هي تفتح إحدى درَف المشرب الفاخر، وهي تقول:

- نعم، أنتَ كسول للغاية، أنتَ لم تهتم حتَّى بإدخال السيارة إلى مرأب الفيلَّا.

لوّح بيده بلا اهتمام، وقال:

- إنها مضـــيعة للوقت ليس إلَّا.. كما أن المَرأب يحتاج إلى مفتاح لفتحه، وأنا لســـت في حالة تسمح بالبحث عن المفاتيح، إننا سنقضي فقط الليل هنا وسنرحل غدًا، كما تعلمين.

لكن (سلمى) تجمَّدت فجأة وهي تتذكَّر مَشهدًا بعينه..

مشهد (رءوف) وهو يدفع باب الفيلَّا ليفتحه.

وفي حدة التفتت إلى (رءوف)، لتقول في انزعاج:

- يا إلهي! (رءوف).. مَن الذي فتَح لنا باب الفيلَّا؟!

قطَّب (رءوف) جبينه في ضيق قائلًا:

- ماذا يعني هذا الآن؟ أنتِ مخمورة دون أن تشربي ما يكفي بالفعل.. إنه أنا بالطبع، هل نسيتِ؟

لكن (سلمى) نهضت واقفة في بطء أمام المشرب، وهي تقول في توتر:

- لا، أنتَ لم تفعل!

وابتلعت ريقها في صعوبة وهي تنظر إلى باب الفيلَّا في خوف، وتضيف:

- لقد دفعتَ الباب فقط لتفتحه، الباب كان مفتوحًا، الآن أتذكر هذا جيدًا.. لم تبحث حتَّى في جيبك عن مفاتيح باب الفيلَّا، لقد دفعتَ الباب فحسب!

قال (رءوف) بنفس الضيق:

- أنتِ واسعة الخيال حقًا.. لا بُدَّ أنني فتحتُ الباب دون أن تلاحظي ذلك، أنتِ أيضًا لمستِ صافية الذهن إلى هذا الحد، صحيح أنك لم تَشربي بقدر ما شربتُ، لكن ماذا عن تدخينك تلك السيجارة المحشوّة بـ...

لكن (سلمى) قاطعته صائحة في توتُّر عصبي:

- أنا واعية تمامًا.. أنتَ لم تفتح باب الفيلَّا اللعين!

وعادت ترمق الباب وأرجاء الفيلَّا الساكنة بخوف، قائلة:

- الباب كان مفتوحًا، كل ما فعلتَه أنتَ هو أن دفعتَه فحســـب، كان مفتوحًا ومُواربًا.. أنا أذكر هذا جيدًا الآن!

وتحوَّلتْ لهجتها إلى الخوف وهي تضيف:

- هناك مَن يشاركنا الفيلَّا يا (رءوف)، لسنا وحدنا هنا!

****

تململ (رءوف) أكثر وأكثر على الأريكة الفاخرة، وازداد الضيق في صوته وهو يقول:

- يا لكِ من سخيفة بحق يا (سلمى)!

قالت (سلمى) في حدة دفعها إليها تراخيه في مواجهة هذا الموقف المخيف:

- أقول لك إن أحدهم هنا معنا، وأنت لا تزال غارقًا في خمرك هذه؟ أفِق، عليك اللعنة!

ثم بعصبية، انقضّت تنتزعه من فوق الأريكة، وهي تسأله:

- بالتأكيد توجد دورة مياه في الطابق الأرضي، أين هي؟

أشار بيده بلا معنى، قائلًا:

- إنها هناك.

دارت بعينيها بسرعة في المكان، حتى استقرتا عند مدخل دورة المياه، فجذبته إليها، وهي تتلفت حولها في توتُّر، قبل أن تشعل إضاءتها، وتدفعه بداخلها وهي تقول:

- هيا، عليكَ أن تضع رأسك هذا تحت مياه الصنبور لتفيق، سنتعرض لكارثة هنا وأنت لا تعي شيئًا!

وفي توتُّر أولته ظهرها لتنظر إلى بهو القيلّا، الذي بدا خاليًا برغم كل شيء، مما جعلها تغمغم في اضطراب:

- انتبه سريعًا يا (رءوف)، ريثما أتيقَّن مما إذا كانت مفاتيح القيلّا في جيب سترتك، فهي لم تكن ضمن مفاتيحك ونحن في الملهى قبل أن نركب السيارة.

جاءها صوت (رءوف) يقول وهو يفتح الصنبور:

- حسنًا، افعلي.

سارت (سلمى) في توتُّر، وهي لا تزال تتلفَّت حول نفسها، إلى المقعد الذي ألقى فوقه بسترته، ومدّت يديها تحاول تفتيش جيوب السترة بعصبية، قبل أن تقبض على المفاتيح، فتخرجها لتتأمّل المفتاح الوحيد بها قائلة في توتُّر أكبر بصوت لم يبلغ (رءوف) في دورة المياه:

- إنها مفاتيح السيارة وحدها، كما توقعتُ.

وأمسكت السترة لتقلبها وتنفضها في عصبية، وهي تقول بنفس التوتُّر:

- وما من شيء سواها!

وعادت تتلفَّت حولها، وتضيف:

- لذا أنا واثقة أننا لم نفتح باب القيلّا، وأنه كان مفتوحًا أصلًا.

خُيِّل إليها أن (رءوف) قد استغرق في دورة المياه أطول مما ينبغي، فهتفت به:

- ما الذي تفعله طوال كل هذا الوقت بحق الجحيم؟ ألم تَفِق بعد؟

وعضّت على شفتها السفلى، وهي تتلفَّت حولها، وقد بدت لها القيلّا الساكنة كنيبة مخيفة..

ثم خطَر لـ (سلمى) فجأة خاطر مخيف..

ماذا لو انقطع التيار الكهربي في ظلّ هذه الظروف؟

لم تكد (سلمى) تُفكِّر في هذا الخاطر، حتَّى تحقَّق أسوأ كوابيسها في هذه اللحظة، وانقطع التيار الكهربي فجأة، على نحو جعلها تشهق في قوة، وهي تسأل بصوت مرتعش:

- من؟ من الذي قطع التيار الكهربي؟!

لم تتلقَّ أي جواب.. في الوقت الذي ظهر فيه واضحًا مع الصمت والظلام، صوت مياه الصنبور القادم من دورة المياه حيث تُركَتْ (رءوف)، فهتفت وما زال صوتُها يرتعش:

- (رءوف)، عليكَ أن تخرج الآن.. لقد انقطع التيار الكهربي. علينا أن نرحل من هنا فورًا!

لكنها لم تتلقَّ أي جواب أيضًا..

لم يجبها سوى الصوت المستمر لمياه الصنبور، فكرَّرتْ في خوف:

- (رءوف)، لماذا لا تجيب؟!

ومع استمرار الصمت، انتابت (سلمى) حالة من الرعب، جعلتها تتلفَّت حولها، وقد بدت كشبح في الضوء الشديد الخفوت الذي يتسلَّل من زجاج باب الشِّيلا السميك، ولا يكفي تقريبًا إلا لإظهار موضع باب الشِّيلا.

لم تكن ترى حتَّى كفيها..

لكن مع وقفتها المستمرة لفترة، اعتادت عيناها الظلام بعض الشيء، فتحركت في الاتجاه الذي كانت تذكر وجود الأريكة فيه، وهي تهمس لنفسها:

- سأحضر الهاتف المحمول، سأستعين بضوء الكشَّاف الموجود به.

سارت في تخبُّط حتَّى الأريكة، وراحت تبحث في اضطراب عن حقيبتها، التي وجدت فيها هاتفها المحمول الكبير بسهولة، فرفعته، وهي تلمس شاشته التي أضاءت على الفور، لتذهب هي فورًا إلى اختيار كشَّاف الضوء فتضيئه، ثم تُسلِّط الضوء بسرعة وتوتُّر على كل ما حولها.

لكن لا شيء..

لم يكُن هناك أثرٌ يوحي بأي شيء أو أي شخص معها في بهو الشِّيلا المظلِم..

وعادت (سلمى) تنادي في خوف بصوت مرتجف:

- (رءوف)، أين أنتَ؟ لماذا لا تجيب؟!

سارت هذه المرة تجاه دورة المياه، لترى صديقها الذي لم يَعُد يجيبها، وهي تتوقع الأسوأ.. وعندما بلغتها، اتسعت عيناها في رعب وهي تتطلَّع إلى دورة المياه الخالية!

فأمام (سلمى)، بدت دورة المياه المظلمة الصغيرة خالية تمامًا، وصنبورها المفتوح يسكُب المياه في الحوض بلا هدف، دون أي أثر لوجود (رءوف)!

والتفتت (سلمى) لتنظر خلفها، لكنها لم ترَ أحدًا، فعادت ببصرها مرة أخرى، لتسلِّط ضوء الكشَّاف بداخل دورة المياه، ويدها تمتد لتغلق الصنبور، وهي تحاول رفع صوتها المرتجف، وتسأل:

- أين أنت يا (رءوف)؟ أين ذهبت؟ ليس هذا هو وقت المزاح السخيف، لو كنت قد فكَّرت فيه!

كانت تشعر بخوف فظيع مع اختفائه على هذا النحو الغامض، خاصةً وقد أظهر ضوء الكشّاف نافذة دورة المياه الصغيرة الموصَدة، التي لا تكفي أبدًا لعبور جسد كجسد (رءوف) منها إلى الخارج، لو كان لديه أي سبب منطقي ليفعل!

لكن بالفعل لا أحد..

الثواني تَمُرُّ، وربما أصبحت دقائق، ولو كان (رءوف) يريد بإخفاء نفسه إثارة ذعرها فحسب، فما حدث كان يكفيه تمامًا ليظهر حتمًا كاشفًا ومفسّرًا كل شيء..

لا شيء سوى الصمت والظلام اللذين لا يزيدانها إلا خوفًا..

ومع هذا الخوف، شعرتْ برغبة في البكاء وهي تقول في رعب:

- لماذا تركتني وحدي في هذا المكان المخيف؟ أين ذهبت؟

لم يجبها سوى الصمت المعتاد، الذي قطعته بنفسها، وقد قرّرت التوجُّه إلى بهو الڤيلّا مرة أخرى، وهي تبحث عن مفاتيح السيارة التي أسقطتها، حتّى وجدتها فأسرعت تختطفها بأصابع مرتجفة، ثم تجري إلى باب الڤيلّا لتفتحه، وتجذب الباب الثقيل بكل قوتها، لتندفع إلى الظلام خارج الڤيلّا، قبل أن ترتطم بشيء قوي فجاة جعلها ترتدّ لتسقط على ظهرها وهي تطلق صرخة رعب رهيبة!

وبمنتهى التوتُّر والخوف، وبيد بلغ منها الارتجاف مبلغه، رفعت (سلمى) هاتفها المحمول لترى هذا الذي اصطدمت به، لتفاجأ بالمشهد الذي جعلها تطلق صرخة أشد عنفًا..

فعلى نحو مخيف، كانت تتدلّى أمامها جثة صديقها (رءوف) المعلّقة من مشنقة ما قُبالة باب الڤيلّا، وقد شَحُب وجهه بطريقة مخيفة وجحظت عيناه وتدلّى لسانه خارج فمه، وراحت جثته تتارجَح من أثر اصطدامها بها في بطء، لينكسر ضوء الكشّاف فوقها تاركًا على أجزاء كثيرة منها ظلالًا مخيفة تتغيّر في كل لحظة مع حركتها هذه.

وفي اللحظة التي رفعت فيها (سلمى) يدها لتضعها على فمها، وقد ملأت دموع الخوف عينيها وهي تهزُّ رأسها غير مُصدّقة لما تراه، شعرت بتلك الحركة الخافتة من خلفها.

ولم تستطع (سلمى) الالتفات في هذه المرة.. لم تجد حتّى الفرصة الصراخ.

****

2- حيرة

ظهر الإرهاقُ واضحًا على ملامح وجه تلك الشقراء جميلة الملامح ذات القامة الفارعة، وهي تجلس على أحد المقاعد الوثيرة في شقَّة، وسط عدد من الشُبان والفتيات الموجودين في المكان، وهي تقول:

- كان اليومُ مُرهقًا جدًا.

كان عدد المتواجدين معها أحد عشر شابًا وفتاة؛ ثمانية شُبّان وأربع فتيات، وقد جلسوا جميعًا في غرفة المعيشة بتلك الشقة، والتفّ مجلسهم حول منضدة، حملت زجاجات غير بريئة المظهر مع بقايا سجائر كادت تمتلئ بها منفضة الرماد.

أحد الشُبّان، كان ذا بنية رياضية وعضلات مفتولة تُظهَر من خلال ملبسه عديم الأكمام، وتتناسب مع ملامحه القوية، قال للفتاة الشقراء وهو يمسك بإحدى الزجاجات المفتوحة:

- بالتأكيد يا (إتچي)، تحقيقات وأسئلة الشرطة تُصيب الجميع بالإرهاق.

كانت هناك فتاة ترتدي حجاب الشَعر، لكن كل ملبسها فيما عدا غطاء الشَعر لا يمت للمحجَّبات بصلة، قالت:

- خاصةً وأن هذا يحدث للمرة الثانية.

لوَّحت تلك التي تُدعَى (إتچي) بيدها قائلة:

- افعلي بي خيرًا ولا تذكّريني بهذا يا (ريم).

قال شابٌ نحيل أبيض البشرة يبدو مميزًا بشعره الأسود الذي يجعله بطريقة ما يبدو كعُرف الديك:

- لكن هذا لن يغيّر من الأمر شيئًا، إنها المرة الثانية بالفعل.

وإذ أطرق البعض برؤوسهم نحو الأرض، والتفتت نظرات الآخرين إليه، أضاف:

- فحادث موت (لمياء) الغامض لم يمضِ عليه الكثير، وهذا ما يجعل تحقيقات الشرطة معنا أكثر إثارة للأعصاب.

أشار إليه مفتول العضلات، وعقّب:

- ما يقوله (وائل) صحيح، نحن لم ننسَ بعد ما حدث لـ(لمياء).

قطّبت (إتچي) جبينها دون أن تجيب، في حين أشارت (ريم) إليه قائلة:

- ومَن يدري حادثًا كهذا يا (إياد)؟ لقد تمزّقت المسكينة شرّ ممزّق داخل دورة المياه بمسكنها، وكانت مُغلَقة من الداخل، وكذلك نافذة المكان كانت مُغلَقة بإحكام.. وذلك الوضع لا يُمكن أن يسمح بدخول قاتل ما إلى مكان كهذا!

قال (إياد)، بعد أن تناول جرعة من زجاجته:

- صحيح أنها تعيش وحدها، لكن عندما زارها (سمير) و(حنان) و(ولاء) في الليلة نفسها، لم تبدُ لهم متوترة على الإطلاق.

كانت (ولاء) فتاة متوسطة القامة، متوسطة الجمال، لها شعر ناعم بُنّي قصير للغاية يليق بشاب، وترتدي ثيابًا شبابية.. وقد وافقت (إياد) بهزّة رأس، على حين تنهّد (سمير) ورفع ذراعه النحيلة ليمسح بيده على شاربه.

أمّا (حنان) فكانت جميلة الملامح، ذات شعر أسود قصير ناعم لا يكاد يصل إلى كتفيها، وملامح هادئة دقيقة تجعلها أشبه بالدُمى، وتمنحها رِقّة لا تتناسب أبدًا مع جلسة ومجموعة أصدقاء كهاتين.. لكنها قالت مُعقّبة على ما قيل في شيء من التوتر:

- نعم، هذا صحيح.. كل شيء بدا طبيعيًا للغاية في تلك الليلة، حتّى أننا صُدمنا عندما علمنا بعد ذلك بنيا مصرعها.

هنا قال شاب له ملامح أجنبية، بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين وبشرته البيضاء:

- شيء ما ليس على ما يرام حتمًا.

ازدادت تقطيبة جبين (إنچي)، وقالت بلهجة عصبية:

- لا تبالغ يا (مدحت)!

ومدّت يدها تشعل سيجارة لنفسها، على حين قال شاب آخر، يميل جسده إلى البدانة وقد تراجع بعض شعر رأسه منبئًا بصلع مستقبلي:

- لا أرى أية مبالغة فيما قاله (مدحت) يا (إنچي). ثمة شيء ما خطأ بالفعل، ثمة شيء غير طبيعي.

نفثت (إنچي) دخان سيجارتها بعد أن التقطت منها نفسًا عميقًا، ثم سألته بحِدّة:

- ماذا تقصد يا (هاني)؟!

قال (إياد) بسرعة:

- يقصد الواضح بالتأكيد يا (إنچي)، كل هذا غير طبيعي.. أم أنكِ ترين شيئًا مختلفًا؟

بقيت (إنچي) صامتة بعض الوقت، تدخن سيجارتها في عصبية، ثم قالت بضيق:

- ما زلتُ أراكم تهوّلون من الأمر يا رفاق؛ أنتم تعرفون أن (رءوف) و(سلمى) كانا مخمورين تقريبًا، والقتيلًا التي قُتلا فيها موجودة في منطقة منعزلة، وهناك ألف احتمال لأن يكون قد تصادف وجود لص ما بالقتيلًا أثناء تواجدهما فيها. هذا يبدو لي أكثر منطقية.

قال (هاني):

- لكن ذلك اللص المزعوم اكتفى فقط بقتلهما بوحشية، فشنق الأول ببشاعة، ثم قطع رأس الثانية، وبرغم ذلك لم يسرق شيئًا من القتيلًا، أليس كذلك؟

قالت (إنچي) بضيق أكثر:

- ربما أصابه التوتُّر مما حدث فهرب.

أشارت (حنان) بيدها، وهي تسأل:

- وماذا عن مكان جثتيهما؟

أدارت (إنچي) عينيها إليها، وهي تسأل:

- ماذا عنه؟

قالت (حنان):

- كيف يتأتّى أن يقتلهما ذلك اللص المُفترَض خارج الڤيلّا ويكون باب الڤيلّا مفتوحًا؟ وفي الوقت الذي ظلّ فيه (رءوف) مُطلًّا، يواجه بوجهه باب الڤيلّا، قُطعت رقبة (سلمى) من الخلف وظهرها إلى باب الڤيلّا، وجثتها أمام جثة رءوف.. كأنما فوجئتْ بها في وجهها وهي تهرب مثلًا من شيء داخل الڤيلّا.

سأل (إياد):

- وكيف دخلتْ (سلمى) أصلًا إلى الڤيلّا دون (رءوف)، إذا كان ذلك الأخير قد شُنِق بالفعل على باب الڤيلّا؟ وأين كان ينتظره ذلك اللص القاتل الذي شنقه أمام الباب؟ متى وجد الفرصة ليشنقه ويعلّقه أمام الباب؟ وكيف ترك (سلمى) تدخل وحدها قبل أن تقرّر الخروج كما تقولين؟

قالت (حنان):

- لم يتم العثور على أي آثار عنف بداخل الڤيلّا برغم ذلك، وهذا يؤكّد أن ثمة شيئًا غير طبيعي قد حدث بالفعل.

قالت (ولاء) في توتُّر:

- السؤال هو.. أي شيء يُمكن يكون قد فعل ذلك؟

مدّت (إنجي) يدها في عصبية، لتطفئ سيجارتها في المنفضة الموجودة فوق المنضدة، وقالت:

- أرى أنكم مولعون بتعقيد الأمر وإضفاء الغموض عليه، ربما للشعور ببعض الإثارة ليس إلّا.

قال (إياد) في ضيق:

- أهذا كل ما ترينه في الأمر؟

قالت في عصبية وهي تلتفت إليه:

- (إياد).. لقد مللتُ التحدث في هذا الأمر بالفعل!

ونهضتْ بنفس العصبية، وهي تقول:

- وأتعرف شيئًا؟ أنا أرى أن الوقت قد حان للرحيل.. لقد أفسدتم مزاجي لهذه الليلة بالفعل.

وجذبت حقيبة يدها الصغيرة لتسرع إلى الباب، فنهض (إياد) يتبعها، و(ريم) تسأل:

- ماذا بها؟ لم يحدث ما يستدعي كل هذا!

لكن أحدًا لم يجبها، ولم تجد في الوجوه سوى ذلك التعبير على وجه (مدحت) بأنه حقًا لا يعرف ما حلّ بها..

وعلى أية حال، لم يطُل الصمت في جلستهم الواجمة كثيرًا، إذ سرعان ما عاد (إياد) وحده ليعلنهم:

- لقد رحلتْ بالفعل.

غمغمتْ (ولاء):

- إنها لا تطيق أن يعارضها أحد، كالعادة.

زفر (إياد) في حنق، وقال:

- نعم، لكن أيًا ما كان الأمر، لقد انتهت الليلة بالنسبة لي أيضًا.

مال (وائل) على (هاني)، وهمس له بصوت لم يصل إلى مسامع (إياد):

- إنه لا يطيق البقاء دونها.

أومأ الثاني برأسه موافقًا دون أن يعلِّق بحرف.. ومع بدء نهوض الجميع، قال شاب له شعر مجعد أشقر وشارب خشن، وملامحه لها طابع إجرامي ما غير مريح:

- نحن نقدِّر بالطبع أن الليلة دون (إنچي) لا معنى لها.

وافقه (إياد) بهزَّة من رأسه، وقال:

- بالطبع يا (أشرف).. (إنچي) تُعتبَر مؤسِّسة مجموعتنا هذه، وهي في العادة التي تخطِّط لكل الرحلات والنزهات والسهرات وما إلى ذلك.

كان هناك شاب له طابع مانع إلى حد ما، يطيل شعره البني ولا يصففه على نحو جيد، ويرتدي نظارة طبية، نهض واقفًا في هذه اللحظة، ليسأل فيما بدا أشبه بدهشة إلى البلاهة أقرب:

- أيعني هذا أننا لن نكمل سهرتنا؟!

ابتسم أكثرهم في سخرية، في حين قالت (ريم) وابتسامتها الساخرة تتسع:

- هذا ما يبدو بالفعل يا (تامر).. سنرحل جميعًا الآن.

بدأوا ينهضون جميعًا مع قولها، ومن بينهم شاب له ملامح وسيمة وبِنية معتدلة وقامة متوسطة، ظل صامتًا طوال جلستهم، وتبعهم إلى خارج الشقة، ليهبط الدَّرَج لاحقًا بـ(حنان)، ويسألها:

- هل أنتِ عائدة إلى البيت؟

التفتَتْ إليه (حنان) لترى في عينيه ذلك الاهتمام الذي طالما رأته وهو يتحدث إليها، مشوبًا بتلك العاطفة المميزة التي تجدها في الحديث معه دائمًا، وصمتَتْ لحظات وهي تحاول أن تقرأ ما بداخله من خلال عينيه، قبل أن تقول:

- أعتقد هذا.

قال لها:

- بدوتِ لي مشوَّشة قليلًا أثناء جلستنا. هل أخافكِ ما حدث كثيرًا؟

قالت بلهجة حاولَتْ أن تضفي عليها بعض الهدوء:

- ما حدث أمرٌ غريب بالفعل يا (يوسف)، يثير توتري حتمًا، لكن هناك شيئًا آخر أيضًا.

سألها في اهتمام شديد:

- وما هو؟

ابتسمَتْ ابتسامة سريعة شاحبة تدلُّ على الإرهاق، وقالت:

- لا عليكِ، إنه أمر تافه.

أسرع يقول ليستحثها على الكلام:

- لكنه يكدِّر صفوكِ، وربما إذا أخبرتني به وجدتُ له حلًّا عندي.

عادت تبتسم تلك الابتسامة الشاحبة، وتقول:

- لا عليكَ حقًا يا (يوسف).. إنه حلم.. مُجرَّد حلم مزعج، ربما بسبب جَوّ التوتُّر الذي نعيشه هذه الأيام.

وافقها بهزة رأس، وقال:

- نعم، ربما كان علينا أن نغيِّر هذا الجو.

وأشار بإبهامه إشارة مُبهمة، مضيفًا:

- أتعرفين؟ أنا أتفق مع (إنچي) على نحو ما فيما ذهبَتْ إليه.. بعض أصدقائنا مُهمِلين بالفعل، والتعرُّض لحوادث قد تؤدِّي إلى الموت، ليس شيئًا بعيدًا عنهم يستوجب الاستغراب والدهشة إلى هذا الحد.

لكن (حنان) أطرقَتْ برأسها، قبل أن تقول:

- معذرة يا (يوسف).. أنا بحاجة إلى بعض الراحة.. اسمح لي الآن بالانصراف، وسأتصل بكَ لاحقًا، أو ربما أنتظر اتصالكم من أجل اللقاء القريب التالي.

أسرع (يوسف) يقول:

- هل تسمحين لي بأن أوصلكِ؟

لكن (حنان) ابتسمَتْ قائلة:

- معي سيارتي، شكرًا لكَ.

أومأ برأسه قائلًا:

- حسنًا، أتمنى لكِ ليلة طيبة.

هزَّت رأسها بدورها، وهي تقول:

- وأنا كذلك.. تصبح على خير.

ولم تبقَ أكثر لتستمع إلى المزيد.. لقد اتجهت إلى سيارتها الأنيقة الصغيرة، التي انطلقَتْ بها، وهي تحاول الحفاظ على تركيزها وعدم الشرود..

كانت (حنان) تسكن وحدها، في شقة صغيرة أنيقة، بمجمَّع سكني راقٍ..

حياتها هادئة آمنة، لا يكاد يعكِّر صفوها شيء..

لكن منذ أيام، بدأتْ (حنان) ترى ذلك الحلم المتكرِّر..

حلم تجد فيه نفسها حبيسة غرفة ضيِّقة، لها طابع كئيب مشئوم، ليس فيها أبواب ولا نوافذ، بمكان تجهله!

إحساس غريب كان يراودها بأن لها صِلة بتلك الغرفة، التي لا تذكر أنها رأتها قط من قبل!

وثمة نذير شؤم -لا تعرف أين دلالته- من أن تحاول العثور على وسيلة لمغادرتها..

وأسئلة حائرة تشغل رأسها.. كيف ومتى ولماذا جاءت إلى ذلك المكان؟ وما هو؟

تكرار ذلك الحلم كان يزعجها، ويشغل بالها، ربما أكثر من الحوادث العجيبة التي يتعرض لها أصدقاؤها.

وعندما وصلتْ إلى شقتها وأبدلتْ ملابسها بملابس منزلية مناسبة، جلستْ فوق سريرها وأدنتْ منها جهاز الكمبيوتر المحمول، لتفتح متصفح شبكة الإنترنت، محاولة البحث عن تفسير لحلمها المتكرر..

بشكل عام، وجدتْ (حنان) أن تفسير رؤية غرفة في المنام دلالة على الاستقرار والأمان، كما تدلُّ على الحياة أو العمل أو الأسرة أو الجو المحيط. عادة ما يُعتبر حلم الغرفة كرمز للخير، إذا ما كانت الغرفة واسعة ومرتبة وجميلة المظهر. أما فيما عدا ذلك، فقد قرأتْ (حنان) في أحد التفسيرات، أن الغرفة المظلمة الضيقة تدلُّ على ضيق الحال والحيرة.. فالمرء لا يرى في الظلام بوضوح، وعدم الوضوح هنا يدلُّ على التشوُّش والحيرة، أو هي تدلُّ في كآبتها على انكسارات من الماضي أو ربما الحنين إليه، ومشاعر قاتمة أو تفكير سلبي قد يعاني منهما صاحب الحلم، أو ربما على الشخصية الانطوائية له، خاصة عند رؤية غُرَف قديمة.

ربما باستثناء التشوُّش والحيرة، لم تجد (حنان) في كل ما قرأت التفسير الذي يريحها بشأن ذلك الحلم.. فلا هي تعاني ضيقًا في الحال ولا هي شخصية انطوائية، ولا تحنّ إلى الماضي..

هل ينبغي عليها أن تتواصل مع أحد مفسِّري الأحلام بشكل خاص ليفسِّر لها الحلم؟ هل تولي الأمر اهتمامًا أكثر مما يستحق؟ بعض الأحلام تتكرر لفترة، ثم تتوقف تلقائيًا إذا تم تجاهلها.

قرَّرتْ أن تغلق جهاز الكمبيوتر المحمول، وتطلَّعتْ إلى ساعة الحائط الأنيقة بغرفتها، التي أشارت إلى أن الوقتَ قد تجاوز منتصف الليل بالفعل، ورفعت يدها لتتحسَّس جانب ذراعها مغمغمة:

- ما زلتُ أفضّل تجنُّب النوم.

اتجهتْ إلى المطبخ، وعلى عجل أعدَّت قهوة سريعة التحضير (نسكافيه)، وذهبتْ بقدحها إلى غرفة المعيشة، لتشغِّل التلفاز وتقضي بعض الوقت في مشاهدته.

****

أمام التلفاز قضت (حنان) وقتًا طويلًا جدًا وهي تتنقل بين قنواته..

وعندما قرَّرتْ أخيرًا أن تنظر في شاشة هاتفها الخلوي لتعرف الوقت، وجدتْ الساعة الرقمية فيه تشير إلى أن الوقت قد تجاوز الخامسة صباحًا..

كانت (حنان) تقاوم النوم.. ذلك الحلم كان يزعجها بشدَّة.. لم تكن تراه كل يوم، لكنه جعلها تكره وقت النوم حقًا.

تثاءبت وغمغمت لنفسها في تكاسُل:

- المفترض ألّا أولي الأمر اهتمامًا زائدًا.. المفترض ألّا أشغل عقلي به.

عادت تمسك بجهاز التحكُّم عن بعد مجدَّدًا للتنقُّل بين قنوات التلفاز...

ولا تعرف متى ولا كيف راحت في عالم النوم في موضعها نفسه، ولم تعُد تتابع الشاشة التي لا تسكُت.

****

من جديد هذه الغرفة!

لا يوجد مَصدر معروف للإضاءة، برغم ذلك ترى الموجودات من حولها -القليلة على أية حال- وقد تدرَّجتْ بدرجات الرمادي، فاتحة في بعض المواضع تكاد تصل إلى البياض، ودكناء في أخرى تكاد أن تكون سَوادًا.

غرفة ضيقة كئيبة، ورؤية مشوَّشة مهتزَّة، كأنما تتابع المنظر عبر شاشة جهاز مراقبة يعاني عيبًا في الاستقبال، فلا تخلو الصورة من الاهتزاز والتشويش، الذي يصل أحيانًا للحظات إلى خطوط سوداء وبيضاء لا توضح شيئًا، قبل أن تعود مرئية من جديد.

لماذا هذه الغرفة؟ إنها لم تَرَها من قبل.. ما الذي فيها؟!

تأمَّلتْها (حنان) في اهتمام، دون أن تستطيع التخلُّص من ذلك الشعور بداخلها بعدم الراحة.. غرفة خالية تمامًا من الأثاث، تصلح لأن تكون إحدى غرف الخزين بمتجر أو منزل ما، خاصةً وأنها تخلو من الأبواب والنوافذ..

لكن كيف يدخلون إلى هذه الغرفة وكيف يغادرونها إذًا؟ وكيف وصلتْ هي إلى داخلها؟ ما علاقتها أصلًا بغرفة كهذه؟!

جدران الغرفة تبدو خشبية.. والشيء الوحيد بالغرفة سواها، عبارة عن مجموعة من الأُطُر المحطَّمة التي تبدو خشبية أيضًا وقطع وأجزاء من ألواح مختلفة الأحجام.

فكَّرتْ (حنان).. إذا كانت هذه الجدران خشبية حقًّا فهي سهلة الاختراق. صحيح أنها تشعر بنذير شؤم من أن تحاول مغادرتها، كأن أمانها أن تبقى حبيسة الغرفة، لكن من الذي يطيق البقاء في مكان كهذا أيًا كان؟! يمكنها أن تحاول كسرها بأي شيء، ولتَرَ ما الذي يكمن وراءها.

اقتربتْ من أحد الجدران، وتحسَّسته.. إنه ليس خشبيًا.. إنها مادة أقرب للحجارة، وربما كانت حجارة بالفعل من نوع ما، لكنها ليست جدرانًا خشبية حتمًا، وإن كانت تبدو مثلها في التشقُّقات العجيبة العشوائية التي تبدو بها.

ومع اقتراب (حنان) إلى هذا الحد من الجدار، لاحظَتْ ذلك الشيء..

ثمة حافَّة في جزء ما من الجدار توضح أنها حافَّة للوح خشبي موضوع أمام جزء من الجدار.

من بعيد حافَّة اللوح وحدوده تكاد لا تكون ملحوظة، أما من هنا، فهي تراها جيدًا.. هذا الجزء منفصل ومستقلّ عن الجدار تمامًا.

ولتحريكه سيتطلب الأمر بعض الجهد فحسب، هذا إذا كان وزنه يسمح لفتاة مثلها ذات جسد ضئيل بأن تستطيع تحريكه. أمسكتْ (حنان) باللوح من أعلى ومن الجانب وهزَّته، فوجدتْ أنها تستطيع تحريكه.. ليس ثقيلًا إلى حدٍّ يعجزها عن ذلك.

هكذا بدأت (حنان) في تحريكه، حتَّى أزاحته تمامًا عن ذلك الجزء من الجدار الذي كان يداريه، لتجد ذلك الشيء للمرة الأولى.. الباب.

كان الباب بلا مقابض لفتحه وبلا مزاليج، وبه نافذة زجاجية علوية كبيرة مُحبَّبة لا تظهر صورة جيدة واضحة لما وراءه..

ومع مرآها تراجعتْ (حنان) شاهقة وهي تحدّق إلى ذلك الظل المخيف الواقف وراء الباب، والذي شوّه أكثر معالمه الزجاج المحبّب، لكنه بقي ضخمًا طويلًا، والأكثر إثارة للفزع أنه قد انتبه إلى إزاحتها للوح الخشبي وأنها باتت تراه، وربما يراها هو أيضًا الآن..

وتحرّك الظل مقتربًا من الباب..

وتراجعت (حنان) وهي تدير عينيها في الغرفة الضيّقة التي لا تحوي حتّى مكانًا يصلح للاختباء، وقد استحالت أمامها هذه المرة إلى ما يشبه المصيَدة.

مصيَدة سيهاجمها فيها خلال لحظات شيء غريب مجهول، في عالم لا تعرفه، ولا فكاك منه.

****

3- تطوُّر

السابعة صباحًا..

في ذلك الوقت المبكّر من الصباح، يهبط (سمير)، أحد أفراد المجموعة الشبابية من منزل عائلته، ليتجه إلى مقر عمله، الذي توسّط له والده في الحصول عليه، بالقرية الذكية.. عمل لا يكاد يفعل فيه (سمير) شيئًا سوى الجلوس خلف أحد المكاتب في جو مُكيّف الهواء، وتناول مشروب ساخن، أو تدخين سيجارة سرًا دون أن يلاحظ مديره، ثم يرحل عند العصر.

يستيقظ (سمير) من النوم شاعرًا بالكسل، ليغلق المنبّه بجواره في ضيق.. ينهض إلى دورة المياه، ممارسًا طقوسه الصباحية المعتادة.. ثم يخرج منها والمنشفة على كتفه، ليجد والده جالسًا أمام التلفاز يتابع عليه شيئًا في غرفة المعيشة في ذلك الوقت المبكّر. ويرمقه بتلك النظرة غير الراضية.

إنه غير راض دائمًا، متى راه في أي وقت اخر على وضع مغاير لهذا؟ هكذا يفكّر (سمير)، مطمئنًا نفسه أن كل شيء يسير على خير ما يرام..

والده لا يكرهه بالتأكيد، إنما....

- ما زال حاله لا يعجبني.

هكذا يأتيه صوته من غرفة المعيشة إذ يتجه إلى غرفته ثانيةً، فتجيبه والدته من مكان ما بالشقة، قائلة شيئًا بشأن شباب هذه الأيام الذين تختلف حياتهم حتمًا عن الحياة التي اعتادها جيل الآباء، دون أن يسمع بوضوح تام ما تقوله. تمضي الدقائق به حتّى يُتِمّ ملبسه، ويقف مصفّفًا شعره بعناية أمام مرآة غرفة نومه، ثم يغادرها إلى غرفة المعيشة، ليتجه إلى الباب مباشرةً، فتسأله والدته السؤال المعتاد، الذي ما زالت تنطقه بنفس الدهشة:

- ألن تتناول الإفطار قبل نزولك؟!

يجيب وهو يخرج من الباب بالفعل:

- تعرفين سخافات المدير بشأن التأخير بالفعل يا أمي.

يقولها وهو يخرج بالفعل، ويغلق الباب خلفه، ليقول والده في ضيق:

- أترين ذلك السلوك اللعين؟

تلتفت إليه الوالدة، فيضيف في حنق:

- إنه لم يلقِ حتّى علينا تحية الصباح!

أما (سمير) فيهبط من البناية التي يقطنها، ويتجه إلى سيارته الصغيرة -الحديثة برغم ذلك- ليدير محرّكها وينطلق بها إلى عمله.

يميل قليلًا إلى اليمين ليلتقط جهاز التحكُّم عن بُعد الذي يشغّل به جهاز تسجيل السيارة، الذي أوصل به اداة صغيرة لتشغيل أغانٍ من اختياره الخاص، ثم يعود إلى وضعه التقليدي مُكملًا قيادة السيارة. يتوقّف بها دقائق عند أقرب محطة وقود للتموين، قبل أن يعاود الانطلاق بها مجددًا مبتسمًا، وهو يدندن مع ألحان الموسيقى وكلمات الأغنية التي يسمعها.

في طريقه إلى العمل، كان يمرّ بجزء من الطريق الصحراوي المؤدّي إلى مقر عمله.. وبرغم الوقت المبكّر، إلا أن السيارات التي تشاركه لم تكن قليلة. كان (سمير) يعرف بوجود سيارات

للأجرة، لها موقف خاص قريب من بداية الطريق الصحراوي، تنقل الناس في ذهابهم وإيابهم على ذلك الطريق، الذي يحتوي في الكيلومترات الأولى القليلة منه، على أكثر من مكان عمل بالفعل، بخلاف مكان عمله هو.

لذا بدا له من الغريب بعض الشيء أن يجد تلك الفتاة ذات الملبس الأنيق، بعد بداية الطريق الصحراوي بقليل، وفي منطقة لا تبدو فيها أية أبنية، واقفة وحدها تمامًا وتشير له بالتوقف!

لم تكن معها سيارة مُعطّلة، ولم يكن ثمة شيء مميّز في البقعة التي وقفَتْ فيها، يفسّر تواجدها هناك في مثل هذه الساعة المبكّرة.

ضغط (سمير) على بدّال الفرامل بسيارته ليخفّف من سرعتها، وهو يتأكّد أنها تشير إلى سيارته هو بالذات بالتوقف.. لا سيارات أجرة قادمة، لا بُدَّ أنها تشير له هو إذًا.

ولم يكذّب (سمير) خبرًا، أوقف سيارته إلى جوارها تمامًا، وهو يميل ليسألها عبر النافذة اليمنى التي فتحها آليًا بالكهرباء:

- هل يمكنني أن أساعدكِ بشيء؟

لكن الفتاة مدّت يدها لتفتح باب السيارة، وتركب بها دون أن تنطق بكلمة واحدة..

وجلستْ الفتاة على المقعد المجاور لـ(سمير)، الذي لاحظ أن ثمة شوشرة عالية مُزعِجة تصدُر من جهاز التسجيل في سيارته، بدرجة دفعته لأن يمد يده ليغلقه مقطّبًا في ضيق، وهو يتساءل بصوت مسموع:

- تبًا لك! ماذا دهاكِ اليوم؟!

وحانت منه التفاتة إلى الفتاة، ليقع بصره على شعرها الناعم فاحم السواد، الذي يغطي جانب وجهها المواجه له بالكامل، فيخفي ملامحها عنه، لكنه بادرها قائلًا:

- حسنًا، يسعدني أن اخترتِ سيارتي بالذات لتوصيلك، وأتمنّى ألّا تكون وجهتكِ بعيدة، فمقرّ عملي على بعد كيلومترات قليلة من هنا، ومديري يتصرّف بسخافة حقًا لذى تأخير أي موظف في مكتبنا.. عليّ أن أسألكِ: إلى أين تريدينا أن نذهب؟

ودون أن تجيب الفتاة بحرف واحد، رفعَتْ يدها تشير إلى اتجاه ما، لم يكد (سمير) يتتبعه بعينيه، حتّى أبصر ذلك المنعطف الترابي شبه الممهد في جانب الطريق، والذي لا يذكُر أنه رآه قط من قبل!

تأمّل (سمير) المنعطف الترابي الجانبي الذي يخترق رمال الصحراء على جانب الطريق الأيمن حتّى مدى البصر، دون أية لافتة ولو صغيرة تشير إلى ماهيته أو إلى أين يقود.. وفكّر (سمير) على الفور في نفسه: إنها محاولة لسلبه سيارته أو ماله على الأرجح، عليه ألّا ينقاد إليها إذًا وألّا يسقط في الفخ.. عليه أن يتخلّص من الفتاة بشكل لطيف.. لكن كيف يفعل بعد أن ركبتْ سيارته بالفعل؟!

رفع يده فاتحًا ما بين سبابته وإبهامه ليحركهما حركة دائرية أسفل شاربه وحول شفتيه من أعلى إلى أسفل، كأنه يرسم بهما حدودًا غير مرئية لفمه مفكرًا، ثم قال:

- آه! كان توصيلكِ ليسعدني بالتأكيد، لكن كما أخبرتُكِ، فمديري شخص سخيف بالفعل، وتأخيري عليه لن يمر مرور الكرام، وذلك الطريق لا أرَى نهايته، وأخشَى أنه سيستغرق مني الكثير من الوقت للذهاب والعودة، أقترح أن نهبط معًا من السيارة لنستوقف لكِ.....

لكنه توقَّف فجأة عن إتمام عبارته، وقد لاحظ ذلك الصوت شبه المنتظم، الذي بدا واضحًا بعد غياب صوت جهاز التسجيل..

صوت أشبه بقطرات ماء تتساقط!

وفي استغراب، تساءل (سمير):

- غريب! أي صوت هذا؟! ما الذي....؟!

كان يتحدث وهو يحاول البحث بعينيه عن مصدر الصوت، الذي كان قادمًا من ناحية الفتاة الجالسة بجواره مباشرةً، لذا فقد ألجم لسانه ذلك المنظر الذي اتسعت له عيناه في دهشة بالغة!

كانت هناك قطرات ماء تتساقط من أسفل الفتاة، لتكوِّن بقعة صغيرة من المياه تحتها.. قطرات ماء دكناء اللون، كأن مصدرها مياه متسخة غير نظيفة أو ملوَّثة بالأوحال..

وفي دهشة كبيرة اختلطتْ بالرعب، رفع (سمير) عينيه يتأمل ملابس الفتاة جيدًا، التي بدَتْ له جافَّة نظيفة إلى أقصى حد بالفعل، على نحو يستحيل معه أن تكون هي مصدر تلك المياه الدكناء..

ثم انتبه (سمير) فجأة إلى هذه الاهتزازات.. اهتزازات غير منتظمة تشمل السيارة كلها، دفعتْه لأن يلقي نظرة عبر الواجهة الزجاجية الأمامية للسيارة، ليدرك أنها تتحرك بهما مقتحمة الطريق الترابي بالفعل!

وفي رعب وتوتر بلغا حدَّهما الأقصى، صاح (سمير):

- أي عبث شيطاني هذا؟!

مع قوله، اندفعَتْ السيارة فوق الطريق الترابي بسرعة كبيرة، واتسعَتْ عينا (سمير)، وهو يشاهد قدميه البعيدتَيْن عن الضغط على بدَّالَيْ القابض والوقود المسئولَيْن عن الحركة، ويده البعيدة عن ناقل الحركة، مما يؤكِّد أن السيارة تتحرك بقوة خفية!

وألجم الخوفُ لسانه تمامًا، وهو عاجز عن استيعاب هذا الذي يحدث وكيف يحدث!

ثم فجأة توقفت السيارة في عنف!

واندفع جسده بفعل القصور الذاتي ليرتطم صدره بعجلة القيادة على نحو مؤلم، جعله يصيح متأوهًا.

وبرغم الدوَّار الذي اكتنف رأسه مع التوقف المفاجئ والارتطام المؤلم، إلا أنه وجد يدًا تجذب شعره في قسوة، لترغمه على إدارة وجهه إلى اليمين، حيث تجلس تلك الفتاة إلى جواره، ليتطلَّع إلى وجهها مباشرةً!

وبرغم ألمه وما يعانيه، انتفض جسد (سمير) في عنف، وهو يحدِّق إلى ذلك الوجه الأسود تمامًا الذي ينافس سواد شعر الفتاة، ذي العينين الحمراوين تمامًا ككرتين من الدم المتجمِّد، اللتين تحدِّقان إليه مباشرةً بنظرة جهنمية.

وإلى خارج السيارة المتوقفة التي اهتزَّ جسمها المعدني في قوة، انطلقَتْ تلك الصرخة القوية التي تحمل طابعًا ذكوريًا، معبِّرة عن أشد درجات الألم والعذاب.

****

- كان المشهد بشعًا عندما وجدوا جثته المصابة بشرخ في أحد الضلوع، وقد انتزع القاتل عينيه من محجريهما بوحشية تامة، وسلخ وجهه، ثم تركه ينزف حتَّى الموت.

قائل العبارة السابقة كان (هاني) البدين الأصلع، إذ اجتمع مع أربعة من أصدقائه، هم (إنجي) و(إياد) و(يوسف) و(ريم)، في مكان مهجور ليلًا، ظهر كساحة ترابية مظلمة، لا تضيئها سوى مصابيح سيارتين لهم، توقفوا هم بينهما وسط بقعة الضوء.

كان المكان يجلب الخوف والتوتر بما يكفي، حتَّى أن (ريم) -التي كانت ترتدي نفس نمط ملابسها كمحجبة لا تمت للمحجبات بصلة- قالت وهي ترمق المكان في توجس:

- ألم تجدوا مكانًا أسوأ للتحدث عن الجثث التي أقتلعت أعينها؟

رمقتها (إنجي) بنظرة متضايقة ساخطة، وقال (يوسف):

- نحن نتحدث عن صديقنا يا (ريم).

قالت في عصبية ولَّدها الخوف:

- صديقنا الذي تصيَّده قاتل غامض لا ندري حتَّى من هو!

قال (إياد) وهو يعقد ساعديه المفتولَيْ العضلات على صدره:

- ولهذا بالذات، وبعيدًا عن مراقبة رجال الشرطة التي ستبدأ لمجموعتنا حتمًا مع وقوع جريمة القتل الثالثة، طلبتْ (إنجي) أن نتقابل هنا.

هتفت (ريم):

- لنثير المزيد من ريبتهم وشكِّهم؟

قال (إياد) في حزم صارم:

- بل لأنه مكان مكشوف، بعيد عن الهواتف التي تسهل مراقبتها، وبعيد عن شقَّة اجتماعاتنا المعروفة لأي شخص قد يترصَّدنا.. نريد أن نتحدث على راحتنا.

قالت (ريم) مُعترضة:

- نتصرَّف كالمجرمين بالضبط.

قالت (إنجي) في هذه اللحظة:

- الواقع أنها لم تكن فكرتي برغم هذا.

التفت الجميع إليها في دهشة وتساؤل، ليجدوها تجذب نفسًا من سيجارتها وتنفثه في قوة باتجاه السماء، كأنما لا تطيق نفسها، وهي تضيف:

- إنها فكرة تلك الحمقاء (حنان)، التي لم تكد تعلم بما حدث حتَّى أصرَّتْ في هيستيريا على أن نتقابل في مكان منعزل، ثم أن أرسل موقعنا إليها.

قالت (ريم) في سخرية:

- ألن يجعل استخدام تلك التقنية مكاننا معروفًا لكل من يراقبنا أيًا كان؟

قالت (إنجي) في صرامة:

- بالطبع لا، لقد أرسلتُ إليها موقعنا ولم أشاركه على "فيس بوك" أيتها العبقرية!

عادت (ريم) تسأل:

- ولأي غرض طلبتْ (حنان) اجتماعنا الآن؟!

أجابها (يوسف) هذه المرة قائلًا:

- ستعرف بالتأكيد عندما تصل.

والتفتَ إلى (إنچي) ليسأل:

- أين باقي مجموعتنا بالمناسبة؟

قالت (إنچي) في لهجة توحي بأنها لم تعد تبالي بشيء:

- لا بُدَّ أنهم في الطريق.

في هذه اللحظة، التفت الجميع على صوت السيارة، التي شقَّت طريقها نحوهم مقتحمة الساحة الترابية، وقد أُضيء مصباحاها الأماميان بأقصى قدرتهما، مع صوت (يوسف) الذي قال وهو يحاول حجب الضوء المباشر القوي عن عينيه مثلهم جميعًا:

- إنها (حنان).. لقد وصلتْ.

مع قوله، أوقفتْ (حنان) سيارتها بحركة عنيفة على مقربة منهم، وفتحتْ بابها لتهبط إليهم، قائلة في عصبية محتدَّة:

- هل أنتم جميعًا هنا؟ أين بقيتكم؟ هل تشعرون بالرضا عن الحال الذي وصلنا إليه الآن؟

أشارت إليها (إنچي) بسبَّابتها قائلة في صرامة:

- تحدَّثي بطريقة لائقة يا فتاة.. ألا يكفيك أنكِ لا تحترمين مواعيدكِ أصلًا؟ إننا ننتظر هنا منذ نصف الساعة!

صاحت (حنان):

- وماذا تعني المواعيد يا زعيمة العصابة؟ حياتنا جميعًا مهدَّدة بالفناء وعلى نحو بشع بسبب شيء مجهول، وأنتِ غاضبة بشأن تأخير مدته نصف ساعة؟

تحركت (إنچي) للاشتباك معها وهي تقول:

- إن لم تهذِّبي ألفاظكِ، ساجبركِ على ذلك!

وتحركت (حنان) بعدوانية مماثلة قائلة:

- سيسعدني أن تُريني قدراتكِ.

لكن (إياد) أسرع يجذب (إنچي)، كما أسرع (يوسف) يحول بين (حنان) وبينها، والأول يقول في غضب:

- مهلًا.. كفى يا (حنان).. كفى يا (إنچي).. نحن هنا لنناقش الأمر بهدوء، لا للتشاجر.

قالت (إنچي) في غضب مماثل:

- ألا ترى الطريقة التي تتحدث بها؟

وكان (يوسف) بدوره يقول لـ(حنان):

- اهدئي يا (حنان).. أنا لم أركِ بهذه العصبية قط من قبل!

قالت (حنان) غاضبة بدورها، وهي تشير نحو (انچي):

- لأنها هي التي ورطّتنا في كل هذا.

هتفت (انچي) في استنكار غاضب:

- أنا؟!

صاحت (حنان):

- نعم، بسبب تجربتكِ اللعينة.

نقّل الجميع أبصارهم بينهما في حيرة وتساؤل، مما جعل (حنان) تكمل مضيفة:

- تلك التجربة الغامضة التي لم نعرف ماذا كانت بالضبط وإلامَ كانت ترمي، والتي شاركنا فيها جميعًا منذ ما يقرب من شهر مضى.

مع هذا القول قطّبت (انچي) جبينها بشدّة، وتراخَتْ مسكة (إياد) لذراعها، وبدا الاستغراب على وجهَيْ (يوســـف) و(هاني)، في الوقت الذي امتزجت فيه الحيرة بالتوتر في ملامح (ريم) التي سألت:

- أتقصدين تجربة الكهف؟

قالت (حنان) في عصبية:

- هي بعينها.

سألها (إياد):

- ماذا عنها؟ لقد كانت مجرّد لعبة قمنا بها للتسلية منذ شهر مضى!

قالت (حنان) بنفس العصبية:

- لعبة لا ندري قواعدها جيدًا، وربما كانت أكثرنا دراية بتلك القواعد هي (انچي) نفسها.. أعتقد أنكم تذكرون جيدًا جميعًا، كيف أنها كانت تعرف كل شـــيء عنها، كيف اقترحتها هي ونظّمتها وشرحتها لنا.

قالت (انچي) في حزم:

- وماذا في ذلك؟ كُنَّا في رحلة خلوية في الصـــحراء، ووجدنا كهفًا قرّرنا قضـــاء البعض الوقت فيه، وعلى سبيل الإثارة وتمضية الوقت في شـيء جديد لم نجربه من قبل، من هنا خطرَتْ لي فكرة أن نجرّب الإسقاط النجمي.

عقدت (حنان) ساعديها على صدرها، وهي تقول:

- هل تسمحي وتوضّحي لي إذًا ما المقصود بالإسقاط النجمي؟

تطلّعت إليها (انچي) في دهشة، قبل أن تبتسم قائلة في سخرية مشوبة بالضيق:

- هذا يبدو سخيفًا؛ لقد شرحته لكم من قبل، وتحمّستم للفكرة جميعًا وشاركتم فيها، لم يبدُ لي وقتها أنني أجبر أحدكم على فعل ما يكره!

قالت (حنان) في سخرية عصبية:

- اعتبريني إذًا نسيتُ ما قلتِ وأرغب في الاستزادة من بحر علمكِ الواسع، ألديكِ ما يمنع في أن تشرحي لنا مجدّدًا ما هو الإسقاط النجمي؟

قال (يوسف):

- أنا قرأتُ عن نظرية الإسقاط النجمي أو الإسقاط الأثيري بعض المعلومات من قبل، وبوسعي أن أجيبكِ عن سؤالكِ.

هزّت (حنان) رأسها نفيًا، وقالت في إصرار:

- أنا أنتظر الإجابة منها هي.

قالت (إنجي) في عصبية:

- حسنًا، ولو أني أجد الأمر ليس إلّا إمعانًا في السخف، لكنني أكرّر -كما قلتُ سابقًا- أن الإسقاط النجمي فكرة موجودة منذ القدم في بعض الأديان، قائمة على أساس إمكانية الانفصال عن الجسد المادي، في صورة أثيرية كطيف أو شبح للشخص نفسه.. في تنقُّلاتنا نحن مرتبطون بقدرات أجسادنا المادية المحدودة للغاية على التنقُّل والحركة والسفر، أما الطيف أو الجسم الأثيري فهو كيان غير مادي لا تحدّه تلك الحدود نفسها، وبوسعه الانطلاق عبر حدود المكان ليزى صاحبه أماكن وأشخاصًا، لم يكن باستطاعة الشخص بصورته المادية الوصول إليها بسهولة.

ما فعلتُه أنا هو أنني وجدتُها تجربة مثيرة، أن نستخدم إحدى التقنيات المعروفة للوصول إليه، وهي التقنية المعروفة باسم التخيُّل.. كنا في كهف وسط الصحراء.. مكان مهجور وهادئ.. لذا فكرت، لِمَ لا؟ دعونا نجرب شيئًا جديدًا. وفي كل الأحوال فقد جرَّبنا ما جرَّبناه، وخرجنا جميعًا من تلك التجربة سالمين، كما أذكر.

قالت (ريم) في هذه اللحظة في خوف متوتر:

- نعم.. الآن أدرك ماذا كنتِ تقصدين يا (حنان).. الآن أذكر تلك التشنجات الغريبة التي اعترتكِ وحدكِ دوننا جميعًا أثناء قيامنا بتلك التجربة.

قالت (إنجي) في عصبية:

- ألا تذكرين إذًا أنها خرجتْ أيضًا سالمة من التجربة ودون أن تشكو من شيء، برغم متابعتنا لها لما يقرب من عشرة أيام بعد ذلك الحدث؟

قال (هاني) هذه المرة في توتُّر بدوره:

- بل نذكُر هذا جميعًا حتمًا يا (إنجي)، لكنه لا ينفي بالطبع أن (حنان) هي الوحيدة فينا، التي انتهت التجربة لتحكي عن شيء لم يمر به سواها.

قال (إياد) في ضيق:

- أتقصد قصة ذلك القصر السخيف مجددًا؟

قالت (حنان) في عصبية:

- أنا لم أختلق تلك القصة، إنها ليستْ من وحي خيالي أو ابتكاري، لقد حكيتُ لكم وقتها ما رأيتُه حقًا.

قال (يوسف) بسرعة:

- ونحن لا نكذّبكِ بالتأكيد يا (حنان).. نحن نعرف أن روحكِ أكثر شفافية منا جميعًا، ولقد أفزعنا ما حلّ بكِ بالتأكيد، بعد أن كنا مُستلقين على الأرض جميعًا نحاول تنفيذ تعليمات (إنچي) بالاسترخاء والتأمّل.

أشارت إليه (حنان) وقالت:

- وهذا هو ما أعنيه بالضبط.. التعليمات.

تطلّع إليها الجميع في دهشة من جديد، فقالت:

- (إنچي) كانت الوحيدة التي تقوم بتوجيهنا في ذلك الوقت.

قالت (إنچي) في لهجة شبه عدوانية:

- بالتأكيد أيتها العبقرية، فأنا كنتُ أكثركم خبرة بالأمر، وكنتُ قد جرَّبتُه من قبل أيضًا.

قالت (حنان):

- وقمتِ بتوجيهنا بالذات لتخيُّل أنفسنا في مكان بعيد.. مكان يبدو كأطلال أو كمنزل قديم.. دون أن تجرّبي ذلك معنا.

قالت (إنچي) في سخرية:

- بالطبع كان من المستحيل أن أشارككم، وأنا التي تمنحكم التعليمات لتخوضوا التجربة الأولى، إنه أمر بديهي!

قالت (حنان) في توتُّر عند هذه النقطة، كأنما لم تسمعها:

- أنا أذكر جيدًا ما حدث.. لقد شعرتُ أنني أسبح في الفراغ.. فراغ بلا نهاية شعرتُ فيه أنني حُرَّة تمامًا لا يقيّدني شيء.. بوسعي أن أغوص في أعماق البحار والمحيطات أو أطير حتَّى أغادر كوكب الأرض نفسه.. شعور رائع عظيم.. لم أشعر بمثله قط من قبل.

ثم فجأة وجدتُ نفسي في ذلك المكان.. شيء أشبه ببهو قصر قديم شديد الاتساع، موغل في القدم، له طابع مُقبض لا تخطئه العين.. لم أشعر بالراحة لتواجدي فيه لحظة واحدة.

ولفترة لا أدري كم طالت ظللتُ أتأمّل ما حولي، الجدران المطليّة بلون أصفر لا يريح العين، وشدّ انتباهي وجود نقوش غريبة أعلاها قرب السقف..

ثم شعرتُ بشيء يهاجمني! شيء قوي مخيف انتزعني من مكاني وانطلق بي في ممرات لا أعرفها بسرعة كبيرة..

وشعرتُ بصدري يضيق وبأنفاسي تتلاحق.. بعدها كان هناك ظلام تام، أفقتُ منه لأجد نفسي بينكم، تطلُّ عليَّ وجوهكم التي اعتراها القلق.

قالت (إنچي) وهي تلقي بعقب سيجارتها التي أوشكتْ على الانتهاء بعيدًا:

- ونحن نذكّر بالتأكيد أيضًا قصتكِ السخيفة، التي مللنا سماعها بالفعل. ما الجديد إذًا؟ لماذا تتهمينني أنني السبب وراء كل هذا؟

سألتها (حنان):

- لماذا لم تفكري في أن كل ما نتعرّض له الآن بسبب تلك التجربة اللعينة؟

- بسبب التجربة؟!

قالتها (إنچي)، ثم انفجرتْ ضاحكة في سخرية، ضحكة طالت واتطلقتْ تجلجل في قلب سكون الليل، الذي خيّم على المنطقة كلها، قبل أن تهدأ تدريجيًا لتقول مبتسمة:

- وبعد حوالي شهر من انتهائها؟ كيف إذًا؟ ولماذا؟ إنها أسئلة تحتاجين إلى الإجابة عنها بنفسكِ، لا أن توجهيها إليّ.

قالت (حنان) على نحو مباشر:

- ألا يجوز أن ذلك الشيء الذي هاجمني، هو الذي تتبعنا إلى هنا بكيفية ما؟ وهو الذي يفعل بنا كل هذا؟

قالت (إنچي) في سخرية:

- الشيء؟ وماذا يكون ذلك الشيء؟!

لكنها وجدتْ (ريم) تشحب قائلة:

- نعم.. هذا منطقي للغاية.. قد يكون ذلك الشيء جنيًا، اقتحمتْ (حنان) عالمه عن طريق الخطأ. جنّي موتٍ يحاول الانتقام منا جميعًا بقتلنا بتلك الوسيلة البشعة.

التفت الجميع إليها، وهمّتْ (إنچي) بقول شيء ما، لكنها واصلت قائلة:

- تذكّروا حادث قتل (لمياء) داخل دورة المياه المُغلَقة من الداخل.. حادث القتل الغريب لـ(رءوف) و(سلمى).. (سمير) الذي قال بعض الشهود إن سيارته اختفتْ حَرْفيًا من الطريق، قبل أن يجدوها فجأة متوقفة إلى يمين الطريق مُحطّمة بعنف وبداخلها جثته النازفة.. أي شيء يستطيع أن يفعل كل ذلك، سوى شيء خارق للمألوف؟

قالت (إنچي) في عصبية وهي تزى التوتُّر الذي شاع في وجوه الجميع من حولها:

- ما تقولونه محض هراء! لقد قُمنا بتجربة إسقاط نجمي بسيطة وليس بجلسة لتحضير الأرواح بحق الجحيم! ما دخل الجن في ذلك؟

قالت (حنان):

- لا أعرف.. لكن امنحيني أنتِ تفسيرًا للأمر أكثر منطقية وأكثر قابلية للتصديق.. امنحيني المزيد من المعلومات عمّا يمكن أن تؤدي إليه تجربة إسقاط نجمي، ينطلق فيها جسم أثيري للقائم بالتجربة بلا حدود وبشكل مُطلَق.. ما الذي يجعلكِ واثقة من أننا لا نعاني رد الفعل عليها الآن؟

قالت (إنچي) في عصبية أكثر:

- ليس لديّ تفسير للأمر، وإن كنتُ أشارككم في البحث عن تفسير مناسب له.. ما حدث أمر يخيفني بالفعل، لكنني لن ألجأ إلى الحلول الخيالية التي لا أساس لها لتفسيره.

قالت (حنان):

- إذًا، دعينا نجرّب من ورائك.

ردّدتْ (إنچي) في استنكار ودهشة:

- من ورائي؟

- لا بُدّ أن أحدهم قد علّمكِ تلك الطريقة اللعينة.. لا بُدّ أنه أكثر دراية منكِ بالأمر.. ولا بُدّ أن نقابله.

بعد قول (حنان)، أطرقتْ (إنچي) برأسها وبدَتْ كأنما تفكر في أمر ما، قبل أن تقول:

- نعم.. هناك مَن علّمني طريقة الإسقاط النجمي بالفعل.. وربما يفيدنا بشأن كل ذلك الذي يحدث.

ورفعتْ رأسها إليهم، لتضيف:

- إنه خبير روحاني، ومُبجر في كل تلك الظواهر والتجارب الغامضة.. ربما وجدنا لديه تفسيرًا بالفعل.

قالت (حنان):

- اتصلي به الآن إذًا، واطلبي منه استقبالنا الليلة.. يجب أن نبدأ التحرك للذهاب إليه الآن.

سأل (إياد) في قلق:

- الآن؟

وتطلّع في ساعة يده، و(حنان) تقول:

- لِمَ لا؟ لا بُدّ أنها لم تبلغ العاشرة مساءً بعد، والأمر يستحق حتّى لو كان الوقت قد تأخّر أكثر من ذلك.

قالت (إنچي) وهي تخرج هاتفها المحمول من جيبها، وتتأمل شاشته:

- حسنًا.. دعونا نجرّب.

وابتعدَتْ بضع خطوات لتجري اتصالها، فسألت (حنان) (يوسف):

- لماذا لم يصل الجميع بعد؟

قال (يوسف) في لهجة هادئة:

- لا أعرف.. لقد طلبَتْ منهم (إنچي) أن يقوموا بتجميع أنفسهم في سيارة أو اثنتين حتّى لا تلفت الانتباه قَدْر الإمكان، وربما ما زالوا يتأكّدون من حضور الجميع.

قالت (ريم):

- لكن يبدو أننا سنرحل من هنا بالفعل قبل وصولهم.

قال (إياد) مطمئنًا:

- يمكننا دائمًا الاتصال بهم وإبلاغهم بوجهتنا الجديدة في أي وقت.. لا داعي للقلق.

ساد الصمت بينهم، وهم يتابعون (إنچي) التي انهمكَتْ في مكالمتها الهاتفية القصيرة، قبل أن تنهيها، وتعود إليهم قائلة:

- من حُسن الحظ أن الرجل قد وافق على استقبالنا الليلة.

قالت (حنان):

- علينا الذهاب إليه الآن إذًا، وعلى الفور.

لكن (ريم) استوقفتها سائلة:

- وماذا عن الباقين؟

قالت (إنجي) في حزم:

- حتَّى لو تحركنا الآن للوصول إليه، سيظل من الأفضل أن ننتظر وصول الباقين لمقابلته؛ هم أيضًا من حقهم أن يعرفوا ماهية ذلك الشيء الذي يطاردهم ويستهدف استنزاف حيواتهم، وكيف السبيل إلى التعامل معه أو التخلُّص منه.

سألها (إياد):

- هل سننتظرهم هنا إذًا؟

قالت (إنجي) وهي تتطلَّع في ساعة هاتفها المحمول، التي اقتربت من العاشرة بالفعل:

- بل سننتظرهم هناك، عند فيلَّا الرجل نفسه.. ربما سيوفِّر علينا بعض الوقت أن ينطلقوا هم إلى هناك مباشرةً بدلًا من أن يأتوا إلى هنا.. اتصل بهم أنتَ يا (إياد).

- فليكن.. سأحدِّثهم في الطريق إلى هناك.. دعونا نبدأ التحرك.

قالها (إياد) متجهًا إلى أكبر السيارات الثلاث المتوقفة، في حين اتجهت (حنان) إلى سيارتها وتبعها (يوسف)، وذهبت (ريم) مع (هاني) إلى السيارة الأخيرة وهي تقول:

- يسعدني أن تغادر هذا المكان؛ إنه أسوأ مكان ممكن لانتظار أي شيء فيه.

لم يعلِّق رفيقها بحرف واحد، والستَّة يستقلون السيارات الثلاث، التي تحركت تباعًا لتغادر ذلك المكان، سعيًا وراء معرفة جزء من الحقيقة، قد يضع تفسيرًا لذلك الهول الذي يتعرَّضون له جميعًا..

أو نحو ذلك الهول نفسه، الذي قد يترصَّدهم في أي مكان وزمان.

****

4- الجلسة

تلفَّتت (ريم) حول نفسها، لتلقي نظرة عبر زجاج السيارة التي ضمَّتها مع (هاني)، على المنطقة شبه المظلمة الساكنة من حولهما، حيث توقفت السيارتان الأخريان لأصدقائهما الأربعة الآخرين، وابتلعتْ ريقها وهي تقول في توتر:

- لا أعرف لماذا يبدو لي أنكم تنتقون انتقاءً هذه الأماكن الصامتة اللعينة! هل تُسهِّلون من مهمة اقتناصنا؟!

تململ (هاني) في جلسته، وقال:

- بالطبع لا يا (ريم)؛ بخصوص المكان الذي تقابلنا فيه منذ قليل، يبدو أن (حنان) كانت ترغب ألَّا يستمع متطفِّل أو مراقِب ما لحديثنا عن تجربة الكهف، ربما حتَّى لا تزيد الأمور تعقيدًا، قبل أن نتيقَّن من أمرنا. أمَّا هنا فهي منطقة فيلَّات، ومن الطبيعي أن تحظَى ببعض الخصوصية والعزلة. أمر طبيعي كما ترين.

قالت (ريم) في لهجة لم يخفْ ما بها من توتر:

- ولو.. إذا كان هذا صحيحًا، كان يتعيَّن علينا إذًا أن نأتي لمقابلة ذلك الرجل صباح الغد، وليس الآن. منتصف الليل يقترب، وأعتقد أن كل ما مرَّ بنا من أحداث في الأيام الأخيرة، لا يمنحنا الأمان الكافي لنبقَى ساهرين خارج منازلنا في الشوارع حتَّى هذا الوقت المتأخر، وفي أماكن خربة كهذه.

ابتسم (هاني) متهكمًا وهو يقول:

- أماكن خربة! سيسعدني حقًا أن يسمع أصحاب الفيلَّات رأيكِ في أماكن فيلَّاتهم الهادئة ويعقِّبون عليه؛ إنهم يسمونها أحياءً راقية.

لوَّحت (ريم) بيدها وهي تتمتم ساخطة بكلمات ما، لم يتبينها هو جيدًا مما جعل ابتسامته التهكمية تتسع أكثر في صمت.

وفي السيارة الكبيرة، كان (إياد) يرمق (إنجي) في صمت، وهي تنفث دخان سيجارتها إلى خارج نافذتها اليمنَى المفتوحة بطريقة تَنُمّ عن العصبية، قبل أن تلتفت إليه، وتتطلَّع إلى نظرته الصامتة لها لحظة، قبل أن تسأل:

- لماذا تُحدِّق إليَّ هكذا كأنما تراني للمرة الأولى؟

بدا (إياد) كأنما يفيق من حالة شرود، وهو يقول:

- أعتقد أنها المرة الأولى بالفعل.

بدت دهشة صامتة في ارتفاع حاجبيَ (إنجي) المتماثل، فأضاف هو:

- أنا لم أركِ بهذه العصبية قط من قبل!

ثم مال نحوها قليلًا، ليسألها:

- هل يزعجكِ حقًا ما قالته (حنان)؟

جذبتْ (إنجي) نفسًا من سيجارتها، ثم أطلقتْه في قوة، قبل أن تجيب في لهجة أوضحتْ تلك العصبية التي تدخن بها سيجارتها:

- بالتأكيد.. هل تتصور أنه سيسعدني مثلًا أن أستمع إلى اتهاماتها الغبية بأنني السبب في كل ما يحدث؟

سألها (إياد):

- أهذا فقط إذًا هو سبب عصبيتك؟

قالت (إنچي) دون أن تنظر إليه:

- بالطبع لا.. يوتّرني ويخيفني حقًا ما نتعرض له، خاصةً مع تكرار الأمر بغموض وبشاعة مع (سمير) اليوم.. لكنني أكره بشدة أن يتهمني اي شخص أيضًا بأنني المسئولة عن ذلك.

ثم أدارت وجهها إليه لتسأله باستغراب:

- ألم تكن أنت لتشعر بالمثل لو كنتَ في موضعي؟!

هز رأسه موافقًا قائلًا في اقتضاب:

- بلى، طبعًا.

لم يبدُ لـ(إنچي) رده لائقًا، فعادت تنظر باتجاه نافذتها، وتكمل تدخين سيجارتها بمزيد من العصبية..

أمّا في سيارة (حنان)، فقد طرقتْ هذه بقبضتها الصغيرة فوق عجلة القيادة في توتر، وهي تقول:

- تأخروا.

- سيصلون في أي لحظة الآن.

هكذا أجابها (يوسف) مطمئنًا.. وظهر التردد في ملامحه لحظات، قبل أن يسألها:

- هل أنتِ على ما يرام؟

التفتتْ تنظر إليه وهي تسأله بدورها:

- ماذا تعني؟

قال (يوسف):

- أعني بالنسبة لاتهامك لـ(إنچي)، بالنسبة لما قلتِه عن التجربة.

ثم اعتدل في جلسته، ليلتفت إليها بجسده كله، قائلًا في اهتمام:

- لقد حكيتِ لي عن حلم يوتّرك. ألهذا علاقة بتلك التجربة؟

قالت في توتر:

- مَن يدري؟ ربما.. لكن كل ما تقوله هو السبب في أنني طلبتُ لقاء مَن هو أكثر خبرة منها بتلك الأمور الآن.

عاد يسألها:

- ما الذي ترينه في ذلك الحلم؟

لكن (حنان) قالت:

- ربما كان من الأفضل أن أحكي ما أراه مرة واحدة؛ لقد وصل الرفاق على ما يبدو.

كانت تشير إلى سيارة كبيرة من الطراز ذي الدفع الرباعي تقترب من سياراتهم، لتتوقف في مكان وسط بينهم، ويطل منها وجه (مدحت)، صديقهم الأشقر، قائلًا:

- مرحبًا يا رفاق.. أتعشم ألا نكون قد تأخرنا.

لكن (إنجي) أسرعتْ تقول بذلك الطابع العصبي في لهجتها:

- لقد فعلتم.. الآن دعونا لا نُضِع المزيد من الوقت -وقد تأخر الوقت بالفعل- وأوقفوا سيارتكم على نحو لائق.. علينا أن نقابل الرجل.

هز (مدحت) رأسه موافقًا، وتحرك بسيارته في هدوء ليجد لها مكانًا للوقوف، على حين سألت (ريم) (هاني) الذي شرع في إغلاق زجاج نافذتيْ سيارته الأماميتين:

- ألا يملك مكانًا بداخل أسوار فيلّته من أجل سياراتنا، بدلًا من تركها هنا؟

أجابها في بساطة، وهو ينزع مفتاح السيارة من موضعه بعد أن أتم إغلاق الزجاج:

- لا بأس من أن نوقف سياراتنا هنا على أية حال يا (ريم). هلمي، حتّى لا نسمع كلمة عصبية ما من (إنجي).

غادروا جميعًا سياراتهم، واتجهوا إلى الفيلّا يتقدمهم (إنجي) و(إياد)، لتضغط الأولى زر جهاز (الإنتركوم) الموجود بجوار بوابتها، وتقول:

- مرحبًا يا دكتور (نشأت).. أنا (إنجي).. لقد وصلتُ أنا ورفاقي عند البوابة، ونستأذنك في السماح لنا بالدخول.

مضت لحظات من الصمت والسكون طالت، حتّى تبادل الجميع النظرات، وهمّت (إنجي) بإعادة المحاولة، إلا أن أزيزًا صدر فجأة، انفتحتْ على أثره البوابة الخارجية أمامهم.

وانتظر الجميع حتّى بدت الصورة من وراء البوابة كاملة، ودرفتاها تتباعدان مفتوحتيْن حتّى اتساعهما، كاشفتان عن ممر قصير من الحجارة، قاد إلى بضع درجات رُخامية تؤدي إلى باب الفيلّا نفسها.

ثم دخلوا متأملين المكان، وعادت البوابة تغلق من خلفهم.

تمتمتْ (حنان) في هذه اللحظة:

- أمر جيد أنه لا يزال ساهرًا.. للحظة ظننتُ أن أحدًا لن يجيبنا.

لم يعلّق أحدٌ على ما قالت، لكن قبل أن يبلغوا الباب تمامًا، قال (تامر)، ذلك الشاب الذي يبدو أبله قليلًا:

- أنتم لم تخبرونا بعد، لماذا جئتم بنا إلى هنا؟

قالت (حنان) في لهجة متعجلة:

- عمّا قليل ستعرف.. ستعرفون جميعًا.. دعونا فقط نسرع بمقابلة الرجل، ولن نضطر إلى تكرار أقوالنا مرتين.

مع كلماتها، انفتح باب الڤيلّا نفسه أمامهم في هدوء، وبدا على عتبته رجل في منتصف الخمسينيات، يميل جسده إلى البدانة، يبدو أنيقًا في معطفه المنزلي الغالي الثمن، ونظّارته الطبية وشعره الفضي الناعم، الذي أرجعه إلى الوراء، كاشفًا عن جبهة عريضة.

وكان الرجل يبتسم قائلًا في ترحاب:

- مرحبًا بكم جميعًا.. مرحبًا يا (إنچي).. يسُرّني أن أستقبلكم بڤيلتي الليلة.

كان لاستقباله المرحِّب أثرًا بالغًا في تهدئة توتر بعضهم.. وفتح الرجل الباب على مصراعيه لاستقبالهم، وقادهم إلى غرفة صالونه الكبيرة، التي تنم عن حس فني لا شك فيه، في اختيار الديكورات التي تزينها.

جلس الجميع في الصالون، وجلس (نشأت) في مواجهتهم، ليقول وهو يلتقط غليونه ليدخنه:

- يؤسفني فقط ألا أقدّم لكم شيئًا تشربونه، فالوقت متأخر ولا أحد معي هنا بالڤيلّا الليلة.

لوّحت (إنچي) بيدها وقالت:

- لا عليكَ.. يكفينا استقبالكَ لنا في مثل هذا الوقت.

ران الصمت على الجميع لحظات، قبل أن تتنحنح (حنان) قائلة:

- الواقع أننا طلبنا مقابلتك يا دكتور الليلة، لنحكي عن تجربة معيّنة مررنا بها، وعن أحداث نتعرض لها مؤخّرًا، ونشكّ في أن لتلك التجربة صِلة بها.

قال (نشأت) في لهجة هادئة:

- حسنًا، كلي آذان مُصغية.. يمكنكم البدء.

حاولتْ (إنچي) أن تقول شيئًا كأنما كانت تهمّ ببدء الكلام، لكن (حنان) واصلتْ كلامها، دون أن تمنحها الفرصة لذلك قائلة:

- منذ فترة نقدّرها بشهر تقريبًا، كُنّا في رحلة "سافاري"، كان عددنا وقتذاك 15 شخصًا.. كانت الرحلة في الصحراء، بغرض التسلية ليس أكثر، ومن ذلك المنطلق، لم نتوانَ في فعل كل ما كان يبدو لنا مثيرًا، للاستمتاع بوقتنا.

صادف أن وجدنا كهفًا، واقترحتْ (إنچي) أن ندخل.. لاقتْ الفكرة قبولًا لدينا جميعًا، فلم نكذّب خبرًا ودخلناه بالفعل. لم يكن الكهف عميقًا، وجلسنا فيه نلتقط لأنفسنا صورًا مرحة للذكرى.. ضحكنا كثيرًا وفكّرنا في أن نبقى به قليلًا ونمارس لعبة ما.

كان ذلك عندما اقترحتْ (إنچي) علينا أن نقوم بتجربة لما يُسمّى بالإسقاط النجمي.. قالت إن علينا أن نتمدد فوق الأرض ونسترخي تمامًا.. الصحراء حتمًا بسكونها وصمتها كانت تساعدنا كثيرًا على الاسترخاء. ثم قالت إن علينا أن نغمض أعيننا للتأمل وتخيل.. اقترحتْ أن يحاول كل منّا أن يبدأ بتخيّل شيء مثير.. منزل قديم يكون قد رآه مثلًا في موضع ما أو مكان مهجور. قالت (إنچي) إن بوسعنا في مرحلة التأمّل أن نتحرر من مادية أجسادنا، ونسبح هائمين في الفراغ اللا متناهي، لنصل إلى أماكن ونشاهد أشياءً ونقابل أشخاصًا، نفعل أمورًا لم يَكُن بوسعنا في عالم الواقع أن نفعلها بهذه البساطة، فقط بالاسترخاء والتأمّل.

وبدأنا بالفعل؛ تمددنا على أرضية الكهف راقدين، وأغمضنا أعيننا، ورحنا نحاول التأمّل.

ثم تعرضتُ أنا بالذات دون الجميع لتجربة خاصة جدًا عجزنا جميعًا عن فهمها وتفسيرها؛ لقد رأيتُ نفسي فجأة في مكان يشبه القصر.. ليس قصرًا فخمًا حقًا، لكنه مبنيٌ شديد الاتساع، بدا لي من الداخل كقصر قديم، شديد القِدم.. له بهو واسع، وجدران عالية مرتفعة، عليها نقوش غريبة، لم أرَ مثلها من قبل قط ذات لون أصفر، لكنه ذلك الأصفر الذي لا يريح العين، ولا يترك في النفس انطباعًا سوى خوف مبهم، وشعوري الداخلي كان يخبرني أنه لم يكن من الصواب أن أتواجد في مكان كهذا.

وفجأة تعرَّضت لشيء لا أفهمه!

فجأة شعرتُ بشيء يهاجمني، بكيان كأنما هاجمني من الخلف، ليضرب رأسي بعصا ويصيبها بالدوار..

وشعرتُ كما لو أنني أندفع داخل ممرات بالمكان بسرعة كبيرة للغاية.. وشعرتُ أنني أختنق، كأنما لا أجد ما يكفي من الهواء لأتنفسه.

ثم كان ظلام.. ظلام كامل، لم أفق منه إلا وأنا وسط أصدقائي هؤلاء، بداخل الكهف، يخبرونني بأنني كنتُ أعاني تشنُّجات عنيفة، وأن جسدي كان يهتز، مما أصابهم بالقلق والخوف.

لم يكن لدى أي منا تفسير لما رأيتُه.. لم يسمع أحد مِنَّا عن شيء كهذا قط.. وحتى (إنچي) -أكثرنا خبرة بتجربة الإسقاط النجمي- بدتْ مرتبكة عاجزة عن تفسير الأمر.

قررنا أن نغادر الكهف وننهي الرحلة بالطبع، وتسرع بي إلى أقرب مستشفى للاطمئنان على حالتي، لكنني كنتُ على ما يرام. لم يصبني أذى ما.. لم يصب أحد منا أي ضرر.

ومرَّت الأيام هادئة، دون أن أعاني أي شكوى أنا أو الأصدقاء لمدة شهر تقريبًا..

لكن منذ أيام لاحظتُ أمرين:

أولهما، أننا نتعرض لجرائم قتل شديدة البشاعة، شديدة الغموض، بدأتْ بالتخلُّص من صديقتنا (لمياء) في دورة المياه الخاصة بها، التي كانت قد أحكمتْ إغلاقها على نفسها من الداخل، ولم يكُن بها مدخل أو مخرج للقاتل.. ثم بمقتل (رءوف) و(سلمى)؛ الأول مشنوقًا والثانية مقطوعة الرأس، بفيلا يمتلكها أهل الأول، بلا أي أثر للقاتل أيضًا.. ثم أخيرًا بميتة بشعة تم فيها اقتلاع عينيّ وتمزيق وجه (سمير) وتحطيم سيارته، في حادث وقع بالنهار هذه المرة، والشهود عليه تشير أقوالهم إلى اختفاء سيارته فجأة من الطريق، بعد أن توقفت لسبب مجهول، ثم عودتها للظهور مرة أخرى بعد لحظات، محطَّمة وهو مقتول بداخلها.

ثانيهما، وهو شيءٌ لم أحكِ بعد عنه لأحد، وفضَّلتُ أن أتحدث عنه الآن، لأنني فكرتُ أنه ربما يكون له علاقة بالأمر، وهو حلم.. حلم غريب تكرَّر أن أراه مؤخرًا؛ أجد نفسي فيه بداخل غرفة ضيقة كئيبة، تكاد تكون بلا مخرج منها أو مدخل إليها.. مكان لم يسبق لي أن رأيتُه من قبل قط. وشعوري الداخلي يخبرني بألَّا أحاول أن أغادرها. وعندما حاولتُ أن أفعل، وجدتُ بابًا غريبًا، وراءه ظلٌ مخيف غامض، يحاول دخول الغرفة، كأنما يعرف بوجودي بها، وهذا وحده كان كفيلًا بأن يوقظني من فرط الفزع والتوتر.

الآن، وقد حكيتُ لكَ باختصار كل ما مررنا به، أضيف أننا ما زلنا لا نجد تفسيرًا لكل ذلك.. نشكُّ في أن هناك شيئًا غامضًا يسعى في أثرنا، ونشكُّ في أن لذلك الشيء علاقة بتجربة الكهف إياها، وأشكُّ أن ما أراه في حلمي له علاقة بكل ذلك. بما أنه قد اتضح أن (إنچي) لا تملك ما يكفي من الخبرة للإجابة عن ذلك السؤال، فقد طلبتُ أنا بنفسي أن نلتقي بمَن هو أكثر خبرة منها.

وصمتتْ (حنان) لحظة، قبل أن تميل في مقعدها إلى الأمام سائلة:

- فهل لديك أي تفسير لكل ذلك يا دكتور؟ هل صادف أن مرَّ عليك شيءٌ شبيه بما قلتَ؟

أطلق (نشأت) دخان عَليونه بشكل متقطِّع أكثر من مرة، قبل أن يخرج الغليون من فمه، ويشير به إليها قائلًا:

- بعض المعلومات التي ربما تضيف إلى ما قلته أولًا.

أومأت (حنان) برأسها موافقة، فبدأ (نشأت) حديثه بعد هنيهة صمت قائلًا:

- دعينا أولًا نعرِّف مرة أخرى الإسقاط النجمي، على أنه فرضية تقول بأن للإنسان جسدًا ثانيًا غير مادي، غير أجسادنا هذه التي نعرفها.. ذلك الجسد إشعاعي. يَحدُث الإسقاط النجمي، بخروج ذلك الجسد الإشعاعي وانفصاله عن الجسد المادي.

الإسقاط النجمي Astral Projection كلمة ذات شِقَّين..

الشقّ الأول Astral: ومعناها نجمي أو أثيري أو وهمي أو تخيُّلي، وهي تشير إلى الطبيعة الأثيرية اللا مادية للجسم الإشعاعي وإلى لا محدوديته، التي يزعم ممارسوه أنها قادرة على التجوال في أرجاء الكون الفسيح، بين الكواكب والنجوم، فمادة الأثير Ether -التي افترضوا وجودها قديمًا- هي مادة مُطلَقة قوية غير مرئية تملأ الفراغ في الكون، اعتبرها (أرسطو) مثلًا العنصر الخامس من عناصر الطبيعة، التي تُضَاف إلى العناصر الأربعة الأخرى، وهي الهواء والماء والنار والأرض، واعتبرها أيضًا عنصرًا ثابتًا غير قابل للتغيير والفساد.

أثبت العلم الحديث أنه لا وجود لمادة الأثير من الأساس، التي افترضوا -كما قلنا- قديمًا وجودها، والتي كانت ضرورية -في نظرهم- لأن تتحرك من خلالها موجات ضوء الشمس مثلًا عبر الفضاء لتصل إلينا. فموجات الصوت تحتاج إلى وسط مادي لانتقالها، وهو ذرات الهواء مثلًا في أغلب الأحيان، أما الفضاء فهو فراغ لا هواء فيه، فكيف تنتقل فيه الموجات الضوئية؟!

كان ذلك قبل اكتشاف ووضع النظريات في القرن التاسع عشر التي تُثبِت أن الضوء عبارة عن موجات كهرومغناطيسية يمكن أن تنتقل في الفراغ، لا تحتاج إلى وجود الأثير.

وحتَّى لا أطيل عليكم في تفاصيل لا تعنينا هنا، يظلّ الأثير -لغويًا فقط وليس بشكل علمي- يرمز إلى الفراغ أو الهواء.

والشقّ الثاني Projection: يعني إسقاط.. لا بُدَّ أنكم سمعتم جميعًا عن جهاز Projector أو المسلاط كما يترجمه البعض. المسلاط هو جهاز لتسليط صورة يتم استقبالها على شاشة لرؤيتها، ويُستخدَم في العادة مع جهاز لعرض شرائح وصور صغيرة، لجعلها تبدو كبيرة وأكثر وضوحًا، فهو يقوم بتسليط الصورة وإسقاطها على لوح يستقبلها، ويجعلها مرئية، ترونه أحيانًا في المحاضرات والدروس، وأعتبر أن أشهر استخداماته تكون في دور السينما.

بهذا يكون الإسقاط النجمي، هو تحرير وفصل لذلك الجسم الإشعاعي الذي يبدو كصورة وهمية، عن جسد الإنسان المادي، والمفترض أن يحدث في ظروف معيَّنة دقيقة، أهمها أن يبلغ الإنسان حالة وسط بين الوعي واللا وعي.. حالة أشبه بما حاولتُ (إنچي) أن تضعكم فيه أثناء تلك التجربة التي قمتم بها.

سألتْ (حنان) في اهتمام مشوب بالحذر:

- كما أفهم مما قلتَ يا دكتور، أنتَ لا تعتقد في وجود الإسقاط النجمي؟

هز (نشأت) رأسه موافقًا، وقال:

- هذا صحيح.. لا توجد أدلة قوية ودامغة على وجود شيء كهذا، فهو نابع عن معتقدات وثنية جاهلة، لأناس اعتقدوا في ألوهية الكواكب والنجوم وكونها قد تؤثر في حياة البشر بشكل مطلق، وللأسف عندما سعينا إلى النقل من الحضارات الأخرى ومن ثقافتهم وتراثهم ومعارفهم، بعد أن صاروا يفوقوننا في كل تلك الأشياء بالفعل، لم نتوقف لفرز ما هو ذي قيمة لنفصله عن الخرافات والسخافات. العلم الحديث يضع أسسًا صارمة ومنهجًا محددًا للفصل بين الحقائق والخرافات، هذه الأسس تثبت أن وجود ما يُسمَّى بالإسقاط النجمي محض هراء، أو على الأقل الدلائل الموجودة على صحته دلائل واهية ضعيفة لا يمكن التجربة والقياس عليها أو اختبارها، ولا يمكن أخذها على محمل الجدية والنظر لها بعين الاعتبار، ولذلك فهو مصنَّف ضمن العلوم الزائفة. ناهيك بالطبع عن مناقشة الأمر من منظور ديني، فأنا رجل علم.

التفتتْ (حنان) إلى رفاقها لتتبادل معهم نظرة حيرى، قبل أن تعود ببصرها إليه قائلة:

- إذا كنتَ لا تعترف يا دكتور بما يُسمَّى بالإسقاط النجمي، وإذا كنتَ تدعم كونه شيئًا لا أساس له من الصحة، فمَن الذي علَّمه لـ(إنچي) إذًا؟ وما الذي تعرَّضتُ له في ذلك اليوم بالكهف؟

قال (نشأت) في لهجة هادئة وهو يمط شفته السفلى:

- لا أعرف كيف تعلَّمتْ (إنچي) طريقته.

التفتتْ (حنان) إلى (إنچي) كأنما تنقل سؤالها إليها، وتحوَّلتْ أعين الجميع إلى هذه الأخيرة، التي قطَّبت جبينها وقالت فيما يشبه الضجر:

- لقد تفقدتُ بعض المنتديات ومواقع الإنترنت لأعرف عن الإسقاط النجمي وطرق ممارسته.

قالت (حنان) في غضب:

- كنتِ تجربينه فينا إذًا؟

بنفس الضيق قالت (إنچي):

- ربما.. لكن لا إساءة في ذلك حسبما أرى.. إنها تجربة لا نفع لها ولا ضرر منها. أنا نفسي حاولتُ القيام بها وحدي عدة مرات وفشلتُ دون أية أضرار.

سألها (إياد) في حيرة:

- لماذا جعلتِنا نجربها ثانيةً إذًا؟

هزت (إنچي) كتفيها وقالت:

- لأنه كان هنالك احتمال لا بأس به في أن أجد بعض الاختلاف والإثارة، برغم كل شيء.

هتفت بها (حنان):

- وماذا عما حدث لي؟

قطَّبت (إنچي) هذه المرة جبينها أكثر وأشاحت بوجهها دون أن تجيب، فقال (نشأت):

- إذا تطرَّقنا إلى موضوع الإسقاط النجمي وماهية ما حدث لكم في تجربة الكهف، سيأخذنا الحديث إلى نقطة هامة وهي ما يطلقون عليه اسم (العين الثالثة).

التفت الجميع إليه من جديد مع هذا القول، فتابع:

- للإنسان عينان فقط يبصر بهما الماديات، إلّا أن البعض يزعمون وجود عين ثالثة بداخل المخ البشري، مكانها موجود بين مكان العينين العاديتين. هذه العين في العلوم الصينية والهندية البوذية مثلًا هي أحد مراكز الطاقة بجسم الإنسان التي تُسمّى (شاكرات) Chakras، وهي معروفة بلفظ أكثر شيوعًا في العالم كله وهو (الحاسة السادسة).

هذه العين او هذه المقدرة خاصة برؤية أو الشعور او حتّى التنبؤ بأشياء غير مرئية أو غير محسوسة بالحواس الخمس الأخرى، وهي ما تُسمّى بظواهر فوق طبيعية أو (ميتافيزيقية).

عوالم ما وراء الطبيعة متعدّدة، والظواهر الميتافيزيقية الموجودة حولنا كثيرة جدًا.

قالت (حنان) في حذر:

- معذرة يا دكتور.. لكنني لم أفهم بعد ما ترمي إليه بهذا القول.

قال (نشأت):

- كثيرون يقولون إنه لا يوجد آثار سلبية مطلقًا لما يُسمّى بالإسقاط النجمي، خاصةً وأن البعض يرى أن عالم الأحلام أثناء النوم، هو تجربة صغيرة للموت، تهيم فيها الروح أو طاقة المرء.. وهذا شبيه بما يزعمونه في الإسقاط النجمي. إلا أن البعض يعتقد في وجود بعض المخاطر والسلبيات له..

من هذه المخاطر، أنه بانفصال ما يُسمّى بالجسم الأثيري للإنسان، يصبح عُرضة للاتصال بالجن أو الأرواح الشريرة، وهو ما قد يجعل صاحبه عرضة للاستحواذ أو المَس أو إلحاق الأذى به.

هناك مَن يقولون إن هذه الخطورة تأتي من إطلاق (العين الثالثة) نفسها، في تجربة الإسقاط النجمي، لأنها طاقة يصعب السيطرة عليها، سواء كان هناك ما يُسمّى بالإسقاط النجمي أم لا.

قالت (ريم) في توتر:

- إذًا فما ذهبنا إليه احتمال صحيح. أن يكون الشيء الذي تعرضتْ له (حنان) هو هجوم لجني شرير بالفعل.

قال (يوسف) في ضيق:

- ألم تسمعي ما قيل بالفعل يا (ريم)؟ لا يوجد ما يُسمّى أصلًا بالإسقاط النجمي، إنه شيء غير حقيقي.

قالت (حنان) في عصبية:

- لكن ما تعرضتُ إليه حقيقي يا (يوسف). التشنُّجات والرؤية.. كل ذلك كان حقيقيًا.

هنا قال (نشأت):

- وأنا لم أشكّك فيما تعرضتِ إليه.. ربما اختلفتْ المسميات فحسب.

التفتت (حنان) إليه، وسألته:

- هلّا أوضحتَ، من فضلك، ماذا تقصد بالضبط؟

ابتسم (نشأت) وهو يقول:

- إنه أمر بسيط، فأنتِ.....

توقف عن إتمام قوله، عندما انقطع التيار الكهربي فجأة عن المكان..

وفي رعب شهقت (ريم) هاتفة:

- يا إلهي! ماذا يحدث؟!

هتف (إياد):

- فليبقَ كل منكم في مكانه.

وخاطب صاحب الفيلا قائلًا في صوت حاول أن يدفع فيه أقصى قدْر أمكنه من الهدوء:

- دكتور (نشأت).. أرجو أن يكون لديك حل لهذا الظلام، الأعصاب متوترة ومشدودة بالفعل، وقد لا يعني الأمر شيئًا سوى مجرد انقطاع عادي في التيار الكهربي.. لكن لا بُدّ أنكَ تفهم ما تمر به.

لكن الصمت هو ما أجاب (إياد)..

وفي توتر عصبي قال (يوسف):

- حسنًا، سأستعمل إذًا كشّاف هاتفي المحمول.

قرن قوله بالفعل، ففتح شاشة هاتفه التي أضيئت بضوء واهن، وراح يتحرك في خياراتها بسرعة، لينبعث فجأة من الهاتف ذلك الضوء الأكثر وضوحًا، والذي وقع على المقعد المواجه لهم، حيث كان لا يزال (نشأت) جالسًا فوقه.

ومع أكثر من شهقة صدرَتْ من الحلوق، تمتم (إياد):

- يا رب السموات!

هذا لأن أعينهم كانت تحدّق مباشرةً إلى (نشأت) الذي مال رأسه جانبًا وقد جحظت عيناه بشكل مخيف وسال الدم بغزارة من فمه ملوثًا ذقنه وعنقه وصدره كله..

ثمّ يؤكد أن شيئًا ما قد انتزع لسانه من فمه قطعًا. بمنتهى الوحشية..

شيء حاضر معهم جميعًا، الآن.

****

5- الشَكّ

تعلّقت أعين الجميع في رعب بمشهد جثة الدكتور (نشأت) جاحظة العينين مقطوعة اللسان.. وللحظات، خيّم صمت مخيف على المكان، قبل أن تتمتم (ريم) بصوت مرتجف:

- ذلك الشيء بيننا.. إنه هنا!

راحت أضواء هواتفهم المحمولة التي أسرعوا يشغّلون جميعًا كشّافاتها الضوئية، تدور في المكان في جنون..

وبدت القيلًا الفسيحة مخيفة حقًا، والظلال تتحرك مع الحركات العشوائية لبقع ضوء كشّافاتهم، راسمة ألف شبح وألف احتمال مخيف للموت.

وفي توتر بالغ، قالت (حنان):

- ماذا تنتظرون جميعًا؟ دعونا نغادر هذا المكان فورًا!

كان قولها إيذانًا ببدء رد الفعل الإيجابي الفعلي للجميع.. رد الفعل الذي ظهر في اندفاع أهوج، أسرع به الجميع نحو الباب مسترشدين بأضوائهم، فقط ليكتشفوا عنده أن الباب لا يفتح!

وبكل قوته، أمسك (إياد) بالمقبض ليحركه في عنف، لكن دون استجابة..

وتراجع (مدحت) عن الباب، قائلًا:

- ماذا يعني هذا؟ أنحن محبوسون هنا؟!

وغمغم (هاني) في رعب غير مُصدِّق:

- مستحيل!

هتفت (ولاء)، ذات الشعر القصير جدًا، في توتر شديد:

- حاولوا تحطيم الباب، أو جرّبوا النوافذ إذًا.

صاح (إياد) في سخط عصبي:

- الباب أقوى من أن نستطيع تحطيمه!

أمّا (وائل)، ذو تصفيفة الشعر الغريبة، فقد ردّد:

- النوافذ.. نعم.

مع كلمته سلّط هو وجميع الموجودين أضواء كشّافاتهم حولهم من جديد بحثًا عن النوافذ، واستقرّت الأضواء على نافذة كبيرة بالفعل تبدو كشرفة، فاندفعوا نحوها في أمل، و(مدحت) يقول:

- ربما أمكننا تحطيم زجاج الشرفة و....

قبل أن يتم عبارته، وقبل أن يبلغوا النافذة، تحطّمت هذه فجأة بدوي عنيف، من الخارج إلى الداخل ناثرة شظايا الزجاج نحوهم..

ومع تحطّمها انطلقت صرخات الفتيات المذعورة، في حين توقف الشباب، وهتف (يوسف) وهو يرفع ذراعيه -مثلهم جميعًا- بشكل غريزي اتقاءً لشظايا الزجاج:

- احترسوا!

ظلّت أذرعهم جميعًا مرفوعة لحظات كأنما يتيقنون أن لن يصيب وجوههم أي أذى آخر، قبل أن يخفضوها في بطء، ويتطلّعوا إلى النافذة المحطّمة في حذر، ليتساءل (هاني) في توتر بالغ:

- ما الذي يحدث بالضبط؟!

وسألت (ريم) في خوف:

- يا إلهي! هل أُصيب أحد؟

تمتم (مدحت) في اضطراب:

- لا.. لا أعتقد أن هناك إصابات، لكن يبدو أن ذلك الشيء معنا يُعلِننا رغبته في أنه لا يريدنا أن نرحل.. إنه يحاول إبقاءنا محبوسين هنا، بداخل الفيلا.

قال (إياد) في عصبية:

- ماذا يعني هذا؟ هل تقصد أن نستسلم للبقاء هنا؟

قالت (إنجي) في هذه اللحظة:

- يجب أن نغادر هذا المكان بأي ثمن.

قالت (حنان) في توتر عصبي:

- أنتِ لم تضيفي جديدًا.. هذا ما نحاول عمله بالفعل.

هتفت (إنجي) في غضب:

- أنتِ بالذات لا أريد أن أسمع صوتكِ؛ أنتِ السبب في مجيئنا إلى هنا الآن!

قالت (حنان) في غضب بدورها:

- أمر جيد! أريني الآن كيف ستخرسينني؟

لكن (يوسف) قاطعهما في هذه اللحظة، وهو يقول في عصبية وتوتر:

- إنني أحسدكما بالفعل على مقدرتكما على الشجار في مثل هذا الموقف الدقيق! ألا تدركان ما نحن فيه؟!

لم يكد يتم قوله، حتّى عاد التيار الكهربي فجأة كما انقطع.. وللحظات أغشى الضوء أبصار الجميع..

وهتفت (حنان) وهي تشير نحو النافذة المُحطّمة:

- يا إلهي! ما هذا؟!

توتر الجميع مع قولها وتراجعوا بحركة تلقائية متحفزة، خاصةً مع عدم تمكنهم من الرؤية بوضوح، وهتفت (ولاء) في عصبية:

- ماذا ترين بالضبط يا (حنان)؟

لكن (حنان) قالت في ضيق شديد لم يخلُ من التوتر:

- لقد لمحتُ شيئًا فحسب.. لمحتُ شيئًا بدا كأنه يندفع خارجًا من النافذة.

خلال لحظات اعتادت أعين الجميع الإضاءة من جديد، فسأل (يوسف):

- هل تقصدين أن القاتل كان يهرب؟

قالت (حنان) في توتر بالغ:

- لقد لمحتُ شيئًا فحسب دون أن أدقِّق النظر.. لقد كانت عودة التيار الكهربي فجأة تغشي بصري بشكل مؤقَّت مثلكم جميعًا، فلم أستطع أن أرى بوضوح، لكن خُيِّل إليَّ أنني لمحتُ شيئًا يسرع بالقفز عبر النافذة إلى الخارج.

تبادل الجميع النظرات في توتر، و(إنجي) تتساءل:

- هل رحل القاتل إذًا؟

ومع قولها، التفت الجميع ينظرون إلى جثة (نشأت) ورائهم..

وتباينت انفعالاتهم ما بين الدهشة والحيرة والتوتر والخوف..

فمقعد الصالون الذي كانت فوقه جثة صاحب الفيلا منذ لحظات قليلة، كان خاليًا الآن..

ولم يعُد هناك أي أثر لها.

****

لثوانٍ حدَّق الجميع إلى المقعد الخالي، الذي كانت تحتله جثة (نشأت) منذ لحظات.. وهمس (إياد) مقطَّبًا في شدة:

- يا إلهي! أي عبث هذا؟ أين اختفت الجثة؟!

كان اختفاء الجثة على هذا النحو مفاجئًا وعجيبًا.. ودارت أعينهم في أرجاء بهو الفيلا الفسيح الساكن تمامًا، لكن الجثة لم تبدُ لهم في أي مكان فيه.

- يجب أن نرحل الآن، وفورًا.

قائلة هذه العبارة كانت (إنجي).. قالتها لتقطع بها حالة الصمت المؤقَّت، فالتفت إليها جميع رفاقها، وتساءل (أشرف)، ذلك الشَّاب الذي لملامحه طابع إجرامي غير مريح:

- ولكن أين....؟

قاطعته (إنجي) في صرامة عصبية:

- ودون إلقاء لأي أسئلة.

اندفع الجميع نحو نافذة الشرفة الكبيرة، ووثب منها (إياد) و(أشرف) إلى الخارج، والأول يقول:

- مهلًا! ينبغي أن نتأكد أنه لا يوجد من يتربَّص منا.

كانت الأضواء قليلة بالخارج، وحتى القادمة منها من الفيلا لا تكشف كل ما يخفيه الظلام، لكن كل شيء بدا هادئًا ساكنًا.

ومن جديد قالت (إنجي) في صرامة عصبية:

- صدِّقوني، يجب أن نرحل الآن، ليس من مصلحتنا أن نقضي هنا لحظة أخرى إضافية.

أشار لهم (أشرف) بأنه يمكنهم مغادرة النافذة، في حين ظلّ (إياد) واقفًا في تحفُّز يتأكد من أنه لا يوجد أحد..

لكن لم يكن هناك شيء بالفعل، لم يلمحوا حتَّى إشارة واحدة تدل على وجود أي شخص سواهم بحديقة الڤيلَّا.

وبعد مغادرتهم جميعًا للنافذة، أسرعوا إلى البوابة الكبيرة الخارجية، التي كانت مُغلَقة بطبيعة الحال، وما من سبيل لفتحها.

وقالت (إنچي):

- محال أن نعود إلى الڤيلَّا مجددًا، ستتسلق السور.

هتفت (ولاء) في استنكار:

- بيننا فتيات والسور مرتفع بالفعل!

قال (إياد) في حزم:

- لكن عددكن قليل، وتدبُّر أمركن سهل. أعتقد أنه لا حل أمامنا سوى هذا.

شرعوا في تسلق السور بالفعل، حيث بقي (إياد) و(مدحت) فوقه، ووقف (يوسف) و(تامر) على الجانب الآخر منه خارج الڤيلَّا، في حين تبقَّى (أشرف) و(هاني) و(ووائل)، لمساعدة الفتيات الأربع في تسلق السور، حيث يلتقطهن الأول والثاني، ويتلقَّاهن الثالث والرابع.

كانت مغادرتهم للڤيلَّا سريعة نوعًا، وبعد هبوط الجميع على الجانب الآخر للسور، غمغمت (ريم):

- أمر جيد أن الشباب قبلنا أكثر من الفتيات؛ لقد ساعدوا بشكل كبير في هذا الموقف العصيب.

غمغم (هاني) بدوره في لهجة خاصة:

- وأمر جيد أن سياراتنا بقيت خارج أسوار الڤيلَّا، وإلا لما استطعنا الرحيل بها.

تطلَّعَتْ إليه (ريم) بنظرة صامتة، فقالت (إنچي) في صرامة:

- لن نتوقف ونتحدث هنا طبعًا.

أسرع الجميع إلى سياراتهم، التي اندسوا بداخلها، وانطلقت بهم لا تلوي على شيء، مغادرة المنطقة كلها..

وفي سيارة (إياد) و(إنچي) التي كانت تتقدم جميع السيارات، سأل الأول الثانية:

- ألديكِ مقترح عن المكان الذي سنذهب إليه الآن؟ علينا أن نتحدث قليلًا.

أشعلَتْ (إنچي) سيجارتها في عصبية، وقالت:

- لم أقرر بعد يا (إياد).. فقط ابتعد بنا كثيرًا عن هنا.. كثيرًا جدًا.

وفي سيارة (حنان)، التي جلستْ فيها مع (يوسف)، كان هذا الأخير يقول لها في توتر:

- كل ما حدث غريب! أمر لا أكاد أصدقه إلى الآن. في لحظات قُتِل الرجل. وفي لحظات أخرى اختفى بلا أثر.

والتفت إليها يسألها:

- أأنتِ واثقة أنكِ رأيتِ القاتل بالفعل يقفز من النافذة؟ هل كان يحمل جثته؟

قالت (حنان) في توتر بدورها:

- لستُ واثقة من شيء يا (يوسف).. قلتُ إنني لمحتُ شيئًا.. ماذا كان ذلك الشيء بدقة؟ لا أعرف حقًا.

قال في غيظ:

- الوغد استغل الفرصة ليهرب دون أن نراه!

قالت بنفس نبرة التوتر في صوتها:

- هل تعتقد أن رؤيتنا إياه كانت لتسُرّنا كثيرًا؟

سألها بصوت متوتر مندهش:

- ماذا تقصدين؟!

زفرت (حنان) مخرجة كل انفعالاتها في هذه الزفرة، وقالت وهي تركز عينيها على الطريق:

- تلك الشيء الذي يسعى في أثرنا شرير جدًا يا (يوسف).. شرير ودموي ولا يبالي بالأرواح التي يزهقها.

- لكنها المرة الأولى التي يخفي فيها جثة من قتله.

- نعم، بالفعل.

ثم قطّبتْ فجأة لتتساءل:

- إلى أين يتجه بنا (إياد) بالضبط؟!

أخرج (يوسف) هاتفه قائلًا:

- سأتصل بـ(إنچي) وأسألها.

قرن قوله بالفعل، لينطلق رنين هاتف (إنچي) في سيارة (إياد)، التي ألقتْ عليه نظرة سريعة، وقالت وهي تختار الرد على الاتصال:

- إنه (يوسف).

جاءها صوته من سيارة (حنان) يسأل:

- أين تتجهان بنا يا (إنچي)؟ (حنان) تسأل.

فكرت (إنچي) قليلًا قبل أن تقول:

- سنذهب إلى النادي.

ردّد (إياد) في دهشة:

- النادي؟ أي نادٍ؟

وسمعتْ (يوسف) يردد الكلمة بدوره، التي ما كادت تسمعها (حنان) حتّى هتفتْ في استنكار:

- أي نادٍ هذا الذي سنذهب إليه الآن؟ لا بُدّ أنها فقدتْ عقلها!

- أخبرها أن تخرس!

هكذا قالت (إنچي) لـ(يوسف)، الذي أشار بيده لـ(حنان) بأن تنتظر، وهو يقول للأولى:

- الوقت تأخَّر الآن بالفعل يا (إنچي). أي نادٍ هذا الذي ستذهب إليه الآن؟

لكن (حنان) عادت تقول:

- أخبرهما أن يتوقفا في أقرب مكان يصلح للتوقف.. علينا أن نتحدث بشأن ما حدث.. لن نظل ننطلق هكذا إلى الأبد.

لم يكد (يوسف) ينقل هذا لـ(إنچي)، حتَّى ظهرت أمارات الغضب على وجهها، وقالت في حدة:

- أي مكان يصلح للتوقف؟! أخبر تلك اللعينة عندك أن.....

لكنها وجدَتْ (إياد) يقاطعها قائلًا:

- إنها فكرة جيدة.. نحن بحاجة إلى التحدُّث بشأن ما حدث بالفعل.. أنا أرى ساحة انتظار سيارات تقترب.

تطلَّعت إليه (إنچي) في غضب، وضغطَتْ زر إغلاق الاتصال، الشيء الذي جعل (يوسف) يحدِّق إلى شاشة هاتفه في دهشة، ويقول:

- لقد أنهَتْ الاتصال فجأة!

لكنه وجد بصر (حنان) مُعلَّقًا في اهتمام بسيارة (إياد)، التي كانت تدخل إلى ساحة الانتظار بالفعل، لتتبعها هي، ثم تتبعها السيارتان الأخريان أيضًا، ليتوقف كل هذا تباعًا في طابور غير منتظم.

وسألت (إنچي) (إياد) في عصبية:

- هل تغيظني وحسب؟!

قال وهو يفتح الباب المجاور له تأهُّبًا لمغادرة السيارة:

- بالطبع لا.. لكننا بحاجة للتحدث والأمر لم يعد يحتمل التأجيل يا (إنچي).. فكري على نحو عملي قليلًا.

استفزها قوله للغاية، فاحمر وجهها غضبًا، لكنها لم تنطق بحرف واحد..

أو ربما لم تجد الفرصة لتفعل، لأن رفيقها كان قد هبط من السيارة بالفعل.

وفي ضيق حقيقي لم تحاول إخفاءه، غادرت بدورها السيارة، ووقفَتْ تتطلَّع إلى (حنان) في مقت، إذ غادرت سيارتها هي الأخرى مع (يوسف) مثل الجميع..

وبدأ (مدحت) الكلام قائلًا:

- ذلك الشيء يتصيدنا.

وقالت (ريم):

- لقد قتل حتَّى الدكتور (نشأت)، الذي لا صلة له بالأمر.

وأضاف (وائل):

- وأخفَى الجثة للمرَّة الأولى.

قالت (حنان):

- إنه يطوّر نفسه في كل مرة.

قال (إياد):

- الغريب أنه لا يهاجمنا معًا.. لقد كان بيننا، وكان هناك ظلام.. كان بوسعه التخلُّص منا جميعًا.. لقد قتل شخصًا خارج مجموعتنا واكتفى بالهرب بالجثة على ما يبدو.

أشار إليه (يوسف) قائلًا:

- ملاحظة جيدة! يبدو أنه لا يقدر علينا جميعًا دفعة واحدة.

أضافت (حنان):

- لهذا أرى أنه يجب أن نظل معًا دائمًا.

بدأت الأصوات تتعالى مستحسنة فكرتها، إلا أن (إنچي) قالت فجأة بلهجة صارمة:

- لا!

التفتتْ إليها كل الأعين، لكنها تابعت في غضب:

- وأنا لن أقضي الوقت حتمًا مع واحدة تحوم حولها كل الشبهات.

تبادلوا نظرات الدهشة، وسألتها (حنان) في عصبية:

- مَن تقصدين بالضبط؟

أجابتها (إنچي) على الفور وبلهجة عدائية تمامًا:

- أقصدكِ أنتِ بالطبع.. إنه أمر أكثر وضوحًا مما يستدعي السؤال أو الدهشة.

لكن قولها لم يزِد على أن جعل الجميع ينقِّلون أعينهم بين الفتاتين الغاضبتين..

بمنتهى الدهشة والحيرة.

****

عقدتْ (حنان) ساعديها على صدرها، وهي تسأل في لهجة متحدِّية:

- ما هو الأمر الأكثر وضوحًا مما يستدعي السؤال أو الدهشة؟

لوّحتْ (إنچي) بذراعيها معًا وقالت في عصبية:

- انتبهوا معي جميعًا هنا وستدركون معنى ما أقول.. هذه الفتاة كانت هي أول مَن ربط بين تجربة الإسقاط النجمي، التي قمنا بها منذ أكثر من شهر -وكنا بعدها جميعًا وبلا استثناء على خير ما يرام- وبين جرائم القتل التي تحدث.. هذه الفتاة هي مَن اقترحت اليوم أن نجتمع في مكان واحد، وذلك المكان كان منعزلًا لتعرّضنا جميعًا للخطر، فلمّا لم يفلح الأمر، أسرعتْ تقترح أن نجتمع في مكان آخر، ليذهب صاحب المكان نفسه ضحية قتل مجهول غامض.. هي الوحيدة التي لمحتْ شيئًا يحاول القفز عبر النافذة أيضًا، ولم تحدِّد ماهيته بالطبع. والآن ما زالت تصرُّ على نفس الرأي الذي سيوردنا جميعًا مورد التهلكة؛ أن نبقى معًا.. إنها لا تفعل سوى أن تقودنا إلى حتفنا. فقط تضع البيض كله في سلة واحدة. لمصلحة مَن؟ وبأي غرض؟

قالت (حنان) في عصبية:

- أهذا هو تحليلكِ المتميز أيتها العبقرية؟ هل نسيت الأمان إذًا بوجود الجميع مع بعضهم البعض؟ ثم إنه قد ثبُت لنا أنه لا يوجد ما يسمّى بالإسقاط النجمي أصلًا، إنه شيء مشكوك في صحته.

ابتسمت (إنچي) في سخرية عصبية وقالت:

- وهذا يثبت كلامي ولا ينفيه.. كلنا أيضًا لم نرَ أي شيء أثناء خوض تجربتنا بالكهف، فيما عداكِ. إن كان ما حدث مجرّد هراء لا أساس له من الصحة، فالوحيدة التي ادّعتْ رؤية شيء كانت أنتِ.

احتقن وجه (حنان) في غضب وهي تقول:

- يا للحماقة!

أمّا (إنچي) فتابعت:

- عن نفسي، سأبتعد كل البعد عن هذه الفتاة الملعونة.. لا أعرف ما صلتها بما يحدث بالضبط، لكن سأراهن بعمري أن لها به صلة مباشرة، وحقكم كأصدقاء لي أن أنبهكم إلى الخطر.. فقاوكم يكمن في البقاء معها.. في الاتصال بها.. أنا لا أريدها في مجموعتنا.. لا أريد الاتصال بها ولا رؤيتها أبدًا مجددًا. إن كانت هناك لعنة ما فيما حدث.. إن كان هناك خطر يتربص بنا، فهي بالتأكيد مصدره ووسيلته إلينا.

لكن أحدًا لم ينطق بحرف واحد.. وفي أعين الجميع رأت (حنان) تلك النظرة المندهشة الحيرَى، التي لم تخلُ من الريبة والشك.. الشيء الذي جعلها تتساءل:

- ما لكم صامتين هكذا؟ ألن تقولوا شيئًا؟

لكنهم بقوا على صمتهم، وأطرق البعض برؤوسهم أرضًا أو أشاحوا بوجوههم لئلا يواجهونها، وبقي البعض الآخر على حيرته وتساؤله الصامت البادي في العينين.

وقالت (حنان) من جديد في استنكار:

- هل تصدِّقون ذلك الهراء الذي قالته؟!

أدارت عينيها في وجوه الجميع مرة أخرى، قبل أن تندفع في عصبية وغضب نحو سيارتها، وهي تقول:

- أتعلمون شيئًا؟ من الخسارة حقًا أن أقضي معكم لحظة واحدة أخرى إضافية!

اندسّتْ في سيارتها، لتدير محركها.. وتحرك (يوسف) متأخرًا جدًا، ليقول:

- (حنان).. انتظري.

لوّحتْ (إنچي) بيدها، وقالت:

- دعها تذهب إلى الجحيم!

ظهر الضيق على وجه (يوسف) مع قولها، لكنه التزم الصمت تمامًا هذه المرة، وهو يتابع مع الجميع (حنان) التي دارت بسيارتها في عنف، لتغادر ساحة السيارات غاضبة، قبل أن يبتلعها الظلام مع سيارتها، فتغيب عن أبصارهم.

والغريب أن (إياد) كان هو أول من التفت إلى (إنچي) ليسألها:

- أأنتِ واثقة مما تقوهتِ به حقًا؟

وتمثَّل أثر هذه الغرابة في الدهشة التي ارتسمت على وجه (إنچي)، كأنما لم تتوقع السؤال منه هو بالذات، وقالت:

- ماذا دهاكَ؟ أتراني ظالمة؟

بدا لها متضايقًا جدًا، لكنه لم يحر جوابًا، فقالت (إنچي) في عصبية:

- حسنًا.. سترون جميعًا.. الأيام القادمة ستثبت لكم من منا على صواب، ومَن على خطأ.

****

في واحدة من صالات الألعاب الرياضية Gym، أدار شاب مفتول العضلات عينيه من ساعة الحائط، التي أشارت إلى أن الوقت قد تجاوز الثالثة صباحًا بالفعل، إلى (إياد) الجالس على أحد الأجهزة الرياضية ساهمًا، لا يقوم بعمل تمرين واحد، وسأل:

- ألن تذهب للنوم يا رجل؟ لقد اتصلتَ بي وطلبتَ أن نتقابل هنا ونتحدث، فلم تتحدث.. اقترحتَ أن نقوم بعمل بعض التمارين في هذا الوقت المتأخر العجيب، فوافقتُكَ على أمل إخراجكَ من حالتكَ المزاجية السيئة، لكن ها أنتَ تجلس صامتًا شاردًا، لا تفعل أي شيء تقريبًا سوى الجلوس نفسه. لماذا لا تذهب للنوم إذًا؟

تنهَّد (إياد) مع قول صديقه، وقال في ضجر:

- لا أشعر بالرغبة في النوم.

سأله صديقه في دهشة:

- ألن تعود إلى البيت إذًا؟!

قال (إياد) بلهجة فاترة تدلُّ على أنه فاقد الحماسة لأي شيء:

- سأبيتُ هنا.. لا تنسَ أنني صاحب المكان.

قال صديقه وهو يقوم من الجهاز الذي كان يستعمله للتمرين:

- لم أنسَ.. لكنني أتساءل حقًا....

ووقف أمام (إياد) يحدِّق إليه بعينيه المتسائلتين في حيرة متابعًا:

- ماذا حلَّ بك؟

قال (إياد) في ضيق:

- لا شيء يا صديقي.. لا تشغل بالك. مجرد أمر حدث الليلة وأفكِّر فيه فحسب.

سأله صديقه:

- إذًا، لستَ بحاجة إلى الكلام معي؟

وجَّه (إياد) عينيه إليه مباشرةً، وقال:

- لا أريدكَ أن تتضايق مني.

مطَّ صديقه شفته السفلى قائلًا:

- لا.. الأمر أبسط من هذا.. سأتركك حتّى تتحدث من تلقاء نفسك.

هز (إياد) رأسه موافقًا ولم يعلّق بحرف..

وإزاء هذا قال صديقه:

- حسنًا.. سأغتسل أنا جيدًا، ثم أبدل ملابسي وارحل.

هنا نهض (إياد) من مجلسه، وقال:

- وأنا ساعد بعض الشاي، هل تريد أن تشاركني في تناوله قبل أن ترحل؟

ابتسم صديقه قائلًا:

- لا.. أعقني.. سأذهب للنوم مباشرةً، وذلك الشاي لن يساعدني على ذلك إذا طاوعتك.

أومأ (إياد) برأسه متفهّمًا، واتجه إلى مطبخ صغير مُلحَق بصالة الألعاب، وراح يتلكأ في صنع الشاي، حتّى سمع صوت صديقه يقول من خارج المطبخ:

- سأرحل يا (إياد).. أما زلت عندك؟

لكنه لم يجبه.. فسمعه يقول:

- حسنًا.. إلى اللقاء.. تصبح على خير.

ولم يرُدّ (إياد) تحيته أيضًا.. لم يكن يرغب في الرد.. لقد وقف أمام الموقد يتطلّع إلى الشاي الذي يصنعه شبه شارد، حتّى أفاق من شرود ذهنه عندما تراقصَتْ أضواء المطبخ في اضطراب شديد مصدرة أزيزًا عاليًا، قبل أن ينقطع التيار الكهربي دفعة واحدة.

وشعر (إياد) بالتوتر..

شعر به وبدا واضحًا في صوته وهو يقول:

- اللعنة!

كان يفكر في الحادث المشئوم الذي وقع الليلة في فيلّا (نشأت)، وخُيّل إليه أنه يرى ذلك الأخير أمامه، في مشهد مُرعب فوق مقعده مائل الرأس جاحظ العينين مقطوع اللسان ينزف.

حاول أن يطرد المشهد عن رأسه، ولم تَبْدُ له فكرة قضاء ما تبقّى من الليل في صالة الألعاب الرياضية محببة، فغمغم لنفسه:

- حسنًا.. المسترة على مقعدي عند مكتبي، ومفاتيح السيارة فوق المكتب على الأرجح.. سأغادر هذا المكان.

أطفأ الموقد، فاختفى بصيص الضوء الواهن الذي كان يضيء المكان من حوله، ليحلّ ظلام دامس على المكان كله، جعله يتحسّس طريقه إلى الخارج قائلًا لنفسه:

- تبًا! ليتني لم أطفئ الموقد!

كانت الظلمة حالكة، وتساءل (إياد) عن السبب في كون الكشّاف الخاص به عند المكتب لم يعمل فيضيء المكان فور انقطاع التيار.

حاول المشي إلى حيث مكتبه في حذر مغمغمًا لنفسه:

- وأخرجتُ أيضًا هاتفي المحمول من جيبي من أجل التمارين اللعينة التي لم أقم بها!

كان يشعر بالحنق أن عليه أن يتحرك في تخبُّط وسط الظلام على هذا النحو، مُحاذرًا الاصطدام بأحد الأجهزة الثقيلة، لكنه كان مضطرًا..

ومع غياب الضوء ومغادرته للمطبخ، انتبه (إياد) إلى ذلك الصوت، الذي توقف ساكنًا تمامًا للتيقُّن منه..

إنه صوت قطرات مياه!

صوت مياه تتقاطر فوق الأرض بإيقاع غير منتظم، جعله يهمس متسائلًا:

- ما هذا بالضبط؟!

أنصت لحظة إلى صوت المياه الذي لم يزده إلا اضطرابًا، ثم هتف:

- صديقي.. أما زلتَ عندك؟ هل غدتْ من أجل شيء ما؟ ما صوت قطرات المياه هذا؟

لم يتلقَّ أي إجابة، بشكل أورثه توترًا مضاعفًا، فلم يدرِ ماذا يفعل، إلا أن حاول طمأنة نفسه بعض الشيء قائلًا:

- لأصل إلى هاتفي فوق المكتب وأضيء كشافه، لأرى من أين تأتي هذه المياه.

لم يكد يتم عبارته حتى حدث فجأة ذلك الشيء..

لقد أُضيئت شاشة هاتفه المحمول فجأة مصدرة صوتًا ينبِّهه بأن شحن البطارية قد قارب الانتهاء..

وعلى الضوء شديد الخفوت الصادر منها، استطاع (إياد) تحديد مكان الهاتف ومكان مكتبه..

والمكان الذي يأتيه منه صوت قطرات المياه أيضًا..

وتجمَّد الدم في عروقه!

فعلى بعد خطوات منه فحسب، ووسط صالة الأجهزة الرياضية، كانت هناك بركة صغيرة جدًا من المياه فوق الأرضية تتجمَّع تحت ما بدا له كعملاق أسود مخيف، لم يظهر الظلام المسيطر على أرجاء المكان جلَّ تفاصيله وملامحه..

وكانت المياه تتساقط من ذلك العملاق نفسه.

وقبل أن يتخذ (إياد) أي رد فعل، امتدتْ ذراع العملاق في سرعة ليقبض بيده على عنقه، فأطلق شهقة رعب قوية، وهو يحاول التملُّص من القبضة المخيفة التي أطبقتْ على عنقه، وصاحبها يرفعه بالكامل عن مستوى الأرض.

ثم خبا ضوء الهاتف المحمول..

وفي الظلام الدامس، تحوَّلت أصوات مقاومة (إياد) إلى حشرجة متألمة يائسة، انتهتْ إلى صمت تام..

ثم اصطدم ذلك الجسم الثقيل بالأرض في قوة.

وعندما عاد التيار الكهربي، بدتْ جثة (إياد) وسط المكان، وهو مُلقًى على ظهره، وقد ازرقَّ عنقه وأسفل وجهه بشكل مخيف، وانحفرتْ في ملامحه علامات الرعب والألم..

6- ليلة مُمطِرة

مرة أخرى ترى (حنان) نفسها في هذه الغرفة ذات الطابع المُقبِض الكئيب..

لا تعرف كيف تصل إليها في كل مرة، فقط تجد نفسها داخلها، كأنما برزَتْ وسطها من العدم.

لكنها كانت كما تجد فيها نفسها كل مرة؛ في نفس موضعها بمنتصف الغرفة تقريبًا..

وكانت الغرفة على نَفْس حالها التي تركَتْها عليها في آخر مرة، باللوح الذي أزاحته عن الجدار، الذي يكشف الباب ذا الجزء الزجاجي من ورائه.

وفي حذر، تطلَّعت (حنان) إلى الزجاج المُحبَّب، الذي يُظهِر هذه المرة أنه ما من ظلّ ورائه.

وفكَّرتْ (حنان) في نفسها، وهي تتطلَّع إلى الباب.. أعليها أن تخرج منه؟ هل أمانها هو البقاء في تلك الغرفة الضيِّقة الكئيبة؟ أم أمانها في أن تغادرها؟

ولماذا تشعر بعدم الراحة لاختيار مغادرتها؟

تأمَّلَتْ الغرفة من حولها، لتجدها -كما تراها في كل مرة- غرفة شبه خالية.. ليس بها أي امتيازات.. لا توحي حتَّى بالأمان.

ثم لماذا تأتي إلى هذه الغرفة؟ ماذا تعني لها؟ وكيف تصل إليها من الأساس؟

من جديد تتكرَّر هذه الأسئلة بلا إجابة.

ويمر الوقت و(حنان) تدير عينيها فيما حولها في حيرة..

بالتأكيد مكوثها في هذه الغرفة لن يغيِّر شيئًا.. لن يغيِّر حتَّى مصيرها، إذا ظهر ذلك الظلّ فجأة، وقرَّر اقتحام الغرفة -كما في المرة السابقة- وليس فيها أي مكان يصلح للاختباء.

أفضل شيء هو مغادرتها إذًا، على الأقل لاستكشاف المكان، بحثًا عن إجابات.. أو حتَّى تمنح نفسها فرصة أكبر للبحث عن مَهرَب، إذا صادفها ما استشعرَتْ منه الخطر.

وتقدمت (حنان) من الباب تتأمله..

كان الباب بلا مقابض ولا مزاليج.. لوح من الخشب لا ترى له حتَّى المفصَّلات التي تسمح له بالفتح أو الإغلاق.. لا ترى فيه سوى تلك النافذة الزجاجية المُحبَّبة وحسب. فكيف السبيل إلى فتحه إذًا؟!

هكذا تساءلَتْ (حنان) وهي تفحص كل جزء منه.. قبل أن تقرر أن تجرب دفعه..

ولشدَّ ما كانت دهشتها، عندما استجاب الباب في يُسر، لينفتح أمامها في بطء، كاشفًا ذلك الممر الطويل خلفه!

ممر طويل يميل إلى الضِّيق، امتد بلا أي أبواب على جانبيه، قبل أن ينتهي بمكان ما، لا تظهر الكثير من تفاصيله لضيق الممر، ويأتي منه ضوء أصفر غامض.

وخرجَتْ (حنان) من الغرفة للمرة الأولى..

شعور عجيب راودها، وراح ينمو في أعماقها بسرعة إذ تتقدَّم في الممر مقتربة من نهايته في حذر، شعور بعدم الارتياح، بالقلق..

هامس خفي بداخلها كان يخبرها بأنها لا ينبغي أن تتواجد هنا، دون أن تعرف السبب!

لكنها لا تعرف كيف جاءَتْ إلى هنا أصلًا؟ وكيف السبيل إلى مغادرة المكان؟

لذا كان من المحتَّم أن تتقدم (حنان) وتتقدم وتتقدم..

ثم بلغتْ أخيرًا نهاية الممر..

ووجدت نفسها -وقد تعالتْ نبضات قلبها في قوة كأنها قرعات الطبول- في قاعة فسيحة، يغمرها ذلك الضوء الأصفر غير المريح، بجدران عالية تحمل نقوشًا غريبة قرب السقف..

إنه نفس المكان الذي سبق وأن رأته من قبل أثناء تجربة الكهف الغامضة..

نفس القصر..

فقط هي لا تذكر أنها مرّت بتلك الغرفة الكئيبة في المرة السابقة، ولا تذكر أنها رأت ذلك الممر الذي غادرته لينتهي بها إلى هنا.

أين هذا المكان؟ وما سرّه بالضبط؟ ولماذا جاءته مرة أخرى؟

راحت تتأمله في فضول لا يخلو من التوتر والقلق، إلى أن انتبهتْ إلى ذلك الصوت..

صوت أشبه بخطوات ثقيلة لشيء يقترب من القاعة التي تقف فيها..

وتصاعد شعورها بالخوف والتوتر والخطر أضعافًا..

كانت القاعة مستديرة تقريبًا، وتبدو كملتقى لعدد من الممرات، كان يأتي صوت الخطوات من أحدها..

ومع اقتراب الخطوات أكثر، ومع توتر (حنان) المتزايد، استطاعت أن تحدّد أي ممر يأتيها عبره الصوت..

وأدارت عينيها إليه، لتلمح ذلك الظل الذي ظهر على الجدار المواجه للمدخل الذي يربط القاعة بالممر، طويلاً مخيفًا، ولّد في جسدها ارتجافة وعيناها تتسعان في رعب..

إنه ليس بشريًا حتمًا.. هذا الشكل الذي يرسمه الظل ليس لبشري..

وذلك الشيء يقترب كثيرًا..

وهي تشعر أن اقترابه يحمل لها كل الأذى..

وفي توتر حاولتْ أن تبحث بعينيها عن أي مخبأ في القاعة، أو أن تختار ممرًا آخر تختفي فيه، قبل أن يبلغ ذلك الشيء نهاية الممر فيراها..

ثم حدث ذلك الأمر..

لقد شعرت (حنان) كأنما اصطدم بها كيان ما من الخلف.. كيان لا تدري ماهيته..

لكن ذلك الكيان كان سريعًا جدًا فيما فعل، وهي تشعر كأنه يحتويها فيسيطر عليها تمامًا..

وفي هذه المرة، لم تشعر (حنان) بصدرها يضيق أو بأنفاسها تختنق..

وبرغم ذلك أطلقتْ تلك الشهقة المذعورة..

وخُيّل إليها للحظة واحدة أن ذلك الشيء -الذي كانت تراقب ظلّه يقترب- قد بلغ القاعة بالفعل..

ثم اختفت القاعة، وذلك الذي يسيطر عليها ينطلق بها في سرعة عبر الممرات، كأنما يدرك حتمية أن تهرب من الآخر الذي كان يقترب..

ثم توقفت انطلاقته..

وانحسرت سيطرته عنها، لتشعر (حنان) بأنها تسقط أرضًا، ورأسها يدور بدوار يجعل عينيها غائمتين وحواسها مضطربة مشوّشة..

وجاهدت (حنان) لتقاوم ذلك الشعور بالإعياء الذي يسيطر عليها..

ثم صفت حواسها فجأة دفعة واحدة، كأنما استعادت كامل سيطرتها عليها في لحظة واحدة، لتجد نفسها وقد سقطت فوق أرض ترابية، أحالتها مياه الأمطار الغزيرة -التي بللت ملابسها وشعرها ووجهها- إلى أوحال..

ورفعت (حنان) عينيها لتجد أنها مُلقاة، تحت سماء مكفهرة شبه مظلمة مليَّدة بالغيوم، تضيء بصواعق البرق، التي يعقبها هزيم الرعد قويًا مخيفًا..

وعلى بعد عدة أمتار منها فوق الأرض الموحلة التي تمتد وتمتد حتَّى مدى البصر نفسه، انتصب ذلك القصر القديم مخيف الشكل، الذي تظهر به التصدُّعات برغم المسافة بينهما..

ذلك القصر الهائل ذو الأبراج، والنوافذ الكبيرة المغبَّرة، التي لم تنجح حتَّى الأمطار الغزيرة في غسلها، والذي بدا كأن قوة ما قد عمدتْ إلى إلقائها خارجه..

ومع صفاء حواسها، شعرتْ كأنها تسمع صوتًا هامسًا، يأتي من لا مكان يقول أشياءً بداخلها حرف (س)، لكنها لم تميِّز منها بصعوبة إلا:

- اهربي.. ارحلي.

وفي ضعف وتثاقل، استندتْ (حنان) بيديها إلى الأرض، لتنهض وتتطلَّع إلى القصر مجددًا..

ثم ظهر فجأة ذلك الظل المخيف خلف إحدى النوافذ..

نفس الظل الذي كانت تحاول الهرب من صاحبه..

وعادت (حنان) تشعر بالخطر..

لكن قبل أن تأتي بأي رد فعل هذه المرة، تألقت النوافذ بوهج أحمر متذبذب جهنمي، طغى على تلك الإضاءة الصفراء التي كانت قبله..

والتصق وجه ذلك الشيء -صاحب الظِّل- بالنافذة، راسمًا وجهًا بشعًا مخيفًا، شوَّه معالمه زجاج النافذة نفسه، فاتحًا فكَّيه المخيفين حتَّى آخر اتساعهما..
وسمعتْ (حنان) صيحته الطويلة..

وبدت الحروف الهامسة كأوضح ما يكون وهي تقول لمرة أخيرة كأنها تهتف بها في جدَّة، ولا تهمس:

- اهربي!

ثم شعرت كأن شيئًا يلطم وجهها وجسدها كله في قسوة..

واختفى المشهد بأكمله من أمامها، ليحل بدلًا منه ظلام.

ظلام حالك شديد السواد.

****

انتفضت (حنان) وهي تستيقظ من نومها، لتنهض جالسة في فراشها بحركة حادة..

ومدت يدها تضيء المصباح الأنيق بجوارها "الأباجورة"، لتتأمل غرفتها..

كانت نافذة الغرفة مفتوحة، يُطير الهواء القادم منها الستار، ويُظهر جزءًا من مشهد الأمطار التي تهطل بغزارة خارجها في قلب الليل، صانعة صوتًا منتظمًا فوق الأرض، ووميض البرق واضح يتبعه هزيم الرعد، كأنما لم تغادر باستيقاظها أجواء عالم الأحلام بعد وما كانت تراه فيه.

وشعرت (حنان) بدهشة بالغة، جعلتها تتساءل في توتر حائر:

- من الذي فتح هذه النافذة؟!

نهضتْ من فراشها بسرعة، وأزاحت الستار لتغلق النافذة في حركة سريعة، ثم تجذب عليها الستار في قوة.

وفي توتر تراجعت تتطلّع إليها لحظات، وهي تتخلّل بيدها خصلات شعرها القصير، كأنما تحاول أن تتمالك نفسها، وتستعيد سيطرتها على نفسها أكثر..

لكن يدها كانت ترتعش..

وأغمضتْ (حنان) عينيها وهي تزم شفتيها لحظات كأنما تحاول أن تسيطر على أعصابها أكثر وأكثر..

الحلم كان قويًا للغاية هذه المرة.. كان شديد الوضوح.

ولم يكن يبشّر أبدًا بالخير..

لقد رأت نفسها من جديد في ذلك القصر اللعين الذي لا تفهم لماذا ولا كيف ذهبت إليه، لكنه يُثبت مرة أخرى صحة ما فكرت فيه.. للأمر علاقة بتلك التجربة المخيفة التي قاموا بها في الكهف..

إذًا فالأمر لم ينته بعد.. إن له تبعات ما زال يعاني منها الجميع..

لا تفهم لماذا هذه التبعات الآن، ولماذا تتكرر بعد شهر تقريبًا من التجربة الأولى، وهل للأمر صلة بحوادث القتل التي تحصد رفاقها حصدًا؟

لكنها يجب أن تسعى إلى أن تعرف..

رفاقها الحمقى لا يصدّقون إلا تلك اللعينة (إنچي)..

ولذا عليها أن تسعى وحدها هذه المرة لمعرفة الحقيقة.. حقيقة كل ما حدث، وكل ما يحدث..

فقط عليها أن تنتظر شروق الشمس؛ لأنها برغم كل شيء لا تأمن الخروج الآن..

صحيح أنها لن تستطيع أن تنام مرة أخرى، لكنها أيضًا لا تجرؤ على الخروج.

وتحركت (حنان) إلى المطبخ، لتعد قهوتها السريعة التحضير، فتضعها على النار، قبل أن تفرك عينيها بيدها مغمغمة:

- يا إلهي! أنا حتى لم أغسل وجهي بعد.

تركت ما تعده على الموقد، واتجهت إلى دورة المياه، لتضيئها بحركة سريعة، وتسرع إلى الصنبور الذي امتدت يدها لتفتحه، وهي تلقي نظرة على وجهها في المرآة..

واتسعت عينا (حنان) عن آخرهما في رعب والدماء تكاد تتجمد في عروقها.. وتراجعت إلى الخلف بضع خطوات وهي تتطلّع إلى المرآة..

فسطح المرآة اللامع، كانت تلوثه مياه دكناء، تبدو كأنها اختلطت بالأوحال، تسيل بخطوط طويلة حتى حافة المرآة السفلية، وتتقاطر لتلوث الحوض نفسه أسفلها..

وبرغم ما صنعه كل ذلك من تشويه للمنظر، ظلّ ما كوّنته تلك المياه الدكناء واضحًا، تاركًا كلمات مقروءة

إلى حدٍ كبير..

"مصيركم الموت.. كلكم تستحقون الموت".

لقد تفاقم الموقف إلى رسالة تهديد شديدة الوضوح، تحمل لمحة مرعبة تنتمي إلى عالم مخيف مجهول!

واستدارت (حنان) بحركة تلقائية إلى الخلف بمنتهى التحفز والتوتر، وهي تتساءل في رعب السؤال الذي بدا لها أهم كثيرًا في هذه اللحظة بالذات..

أهي وحدها الآن في شقتها؟

وكانت إجابة السؤال مخيفة للغاية..

مخيفة وتحمل رائحة الموت ذاته.

****

- ستشرق الشمس بعد قليل، لقد بدأ نور الصبح ينتشر في الأفق.

قال (هاني) الذي يميل جسده إلى البدانة ويميل رأسه إلى الصلع، العبارة السابقة لرفيقته (ريم) -التي ترتدي حجاب الشعر- إذ يجلسان معًا في تلك الساعة المبكرة جدًا من الصباح في أحد الأندية الكبيرة، محتميان بمظلة المنضدة نفسها من المطر، فحانت من (ريم) التفاتة لتلقي نظرة على الاتجاه الذي يتطلع إليه، وترى الشفق وقد بدأ يتلون بألوان متدرجة رائعة، تنبئ بأن ضوء النهار قد حان موعده ليولد أخيرًا ويمحو ظلام الليل ورهبته.

ورفع (هاني) رأسه وعينيه إلى أعلى قليلًا، وأضاف:

- المطر أيضًا خفَّت حدَّته كثيرًا.. أعتقد أنه في سبيله إلى أن يتوقف تمامًا.

رفعت عينيها بدورها تراقب المطر الذي بدأت تخفت شدَّته، وهزت رأسها موافقة في صمت، فخفض (هاني) عينيه إليها ليقول:

- أعتقد أنه حان الأوان للعودة إلى البيت الآن.

خفضت عينيها إليه ليرى في عينيها القلق والخوف، مما دفعه لأن يقول:

- أعتقد أن النهار أكثر أمنًا كثيرًا يا (ريم).. لقد قضيت الليلة معي خارج منزلك.

تنهدت وقالت:

- نعم، لم أجد في نفسي الجرأة على العودة إلى البيت ليلًا، خاصةً بعد ما حدث ليلة أمس.

ثم سألته:

- هل تعتقد أن للأمر صلة بـ(حنان) حقًا؟ أعني هل هناك احتمال بالفعل لأن تكون هي السبب في كل ما يحدث؟

جعله قولها يتنهد بدوره في عمق ويقول:

- لا أستطيع التأكيد أو الجزم بشيء.. (إنچي) لا تطيق (حنان) أصلًا.. والاثنتان كانتا عصبيتين للغاية مؤخرًا، وكلتاهما تتهم الأخرى بأنها السبب.

قالت بسرعة:

- لكن اتهامات (إنچي) تبدو أكثر منطقية.

تطلَّع إليها في تساؤل، فأضافت:

- كل ما قالته صحيح تقريبًا، الوحيدة التي ترى أو تصف أشياءً غريبة هي (حنان) وحدها.. لماذا هي دوننا جميعًا؟

هز (هاني) رأسه علامة النفي، وهو يقول في أسف:

- لن تجدي إجابة مثل هذا السؤال عندي.

قالت (ريم):

- حتّى لو افترضنا أن نصف ما تقوله (إنچي) صحيح والنصف الآخر خطأ، أن (حنان) أثناء التجربة تعرضت لمحاولة استحواذ شيطاني من نوع ما، وأصبحت ممسوسة، وذلك الشيء بداخلها الآن يحاول القضاء علينا جميعًا. في هذه الحالة أيضًا سنجد أن (إنچي) على حق فيما ذهبت إليه؛ أن (حنان) تمثّل خطرًا على حياتنا، ويجب أن نبتعد عنها.

ابتسم (هاني) ابتسامة شاحبة وهو يسأل:

- هل تعتقدين هذا؟

قالت في شيء من العصبية:

- هل ترى شيئًا آخر؟

قال في لهجة حاول أن يضفي عليها الكثير من الهدوء، لكنها خرجت يغلب عليها إرهاق سهره طوال الليل:

- أنا أرى الأمر أكثر غموضًا، وأن ما قلته لا يكفي لتفسير الموقف.. فلو كان ما قلته صحيحًا، فلماذا الآن؟ لماذا القتل بعد مرور ما يقرب من شهر على الأحداث الأصلية؟ لماذا لم يتحرك ذلك الشيطان فور وقوع الاستحواذ، بافتراض أنه قد تم في الكهف بالفعل؟

قالت في توتر:

- ماذا تعني؟ أن (إنچي) مخطئة فيما ذهبت إليه؟

قال بنفس اللهجة المرهقة:

- كما قلت يا (ريم)، لا يمكنني الجزم بشيء، لكن ما قالته (إنچي) قاصر للغاية، ويعبّر عن غضبها وعصبيتها أكثر مما يدل على أي شيء آخر.

ثم تثاءب ليضيف:

- كما أننا بحاجة إلى النوم حتمًا، متى سنعود إلى منازلنا؟ لن يمكننا التفكير بشكل سليم ونحن على هذه الحال من الإرهاق الذهني والبدني.

وأشار إليها قائلًا:

- دعينا ننهض لنتحرك الآن، عندما أوصلك إلى منزلك ستكون الشمس قد أشرقت تمامًا.

نهضا معًا ليغادرا المنضدة.. وكان المطر قد توقف أو كاد.. فقالت (ريم):

- أنا بحاجة إلى الذهاب إلى دورة المياه.. يجب أن أتأكد أن مظهري على ما يرام، لا بُدّ أن ذلك المطر السخيف قد أفسد الكثير.

هز (هاني) رأسه موافقًا، وقال:

- لا بأس.. وأنا سأنادي النادل لأحاسبه، وسأنتظرك بالقرب من هناك.. فقط لا تستغرقي الكثير من الوقت في إصلاح زينتك.

تركته (ريم) لتتوجه إلى مبنى دورة مياه السيدات المُستقِلّ، ودخلته لتجده خاليًا تمامًا في مثل هذه الساعة المبكرة، فوضعت حقيبتها على حاجز رخامي أنيق أمام مرآة كبيرة، وتطلّعت إلى ملامحها التي يبدو عليها إرهاق السهر مغمغمة:

- لا بأس، لمسات بسيطة ويكون كل شيء على ما يرام.

أخرجت بعض أدوات الزينة من حقيبتها، وراحت تعدّل وتضيف بعض اللمسات على وجهها..

ثم انتبهتْ فجأة إلى ذلك الصوت مع ارتعاش أضواء المكان على نحو مقلق..

كان هناك صوت طرقات خافتة، بدا واضحًا مع صمت المكان التام..

والتفتت (ريم) تجول ببصرها داخل دورة المياه، بحثًا عن مصدر الطرقات الخافتة في استغراب، لتقع عيناها على ذلك الباب الموصَد الوحيد لإحدى المقصورات، والذي يدُل على أن شخصًا ما يشغل المقصورة.. وكانت الطرقات تأتي من وراء الباب.

وقطَّبت (ريم) جبينها في حيرة وهي تشاهد خيطًا رفيعًا من مياه دكناء، يتسلل من أسفل باب المقصورة الموصد، خارجًا إلى منطقة الأحواض والمرآة التي تقف فيها!

ومرَّت لحظات، دون أن تحرك (ريم) ساكنًا، تكرُر خلالها صوت الطرقات الخافتة، الشيء الذي جعل (ريم) تترك مكانها أمام المرآة، وتتقدم من الباب هاتفة:

- أيوجد أحد بداخل المقصورة؟

وقرعَتْ الباب مضيفة:

- مرحبًا، لماذا تطرقين الباب؟ هل ثمة مشكلة ما عندك بالداخل؟ أنا أرى مياه دكناء لا تبدو نظيفة تتسلل خارجة من أسفل الباب.. هل أنتِ بحاجة إلى مساعدة ما؟

لكن الجواب كان الصمت المطبق.

حتَّى صوت الطرقات الخافتة نفسها توقف، ولم يتغيَّر في المشهد سوى المياه الدكناء التي ازدادت بشكل ملحوظ، مما جعل حاجبيّ (ريم) يتقاربان في دهشة حائرة، وهي تعيد الطرق على الباب مكررة:

- سيدتي، أيًا كنتِ.. هل تعانين مشكلة ما بالداخل؟

لكن مع استمرار تدفق المياه الدكناء من أسفل الباب بشكل وجدَتْه (ريم) مقلقًا، مدَّتْ يدها لتفتح المقبض فجأة وهي تسأل:

- لماذا لا تجيبين بحق الجحيم؟!

ثم توقفت (ريم) ذاهلة..

كانت المقصورة ضيِّقة من الداخل ونظيفة تمامًا، ليس فيها ما يدل على وجود مشكلة واحدة..

والأهم أنها كانت خالية.. لا أحد فيها.

وفي استغراب خفضت (ريم) عينيها إلى بقعة المياه الدكناء التي يتسلل منها خيط متدفِّق إلى الخارج، والتي بدت كأنما تطفح من الأرض نفسها أسفل الباب مع نظافة وجفاف المقصورة، مما جعلها تهمس:

- أي عبث لعين هذا؟! أنا واثقة أن هذه المقصورة كانت هي مصدر الطرقات!

وتأملت المشهد لحظات أخرى، قبل أن تقول:

- سأجد العاملة المسئولة بالخارج وأبلغها عن تلك المياه التي ستلوث المكان بأكمله خلال دقائق و.....

كانت تتحدث وهي تستدير عائدة إلى حقيبتها أمام المرآة، عندما فوجئتْ بأنها أصبحت تقف وجهًا لوجه أمام عملاق هائل أسود، يخفي السواد كل تفاصيله وملامحه على نحو مخيف، فشهقَتْ في قوة وعيناها تتسعان في ذعر!

وخارج مبنى دورة المياه، وقف (هاني) يتثاءب على بعد أمتار منه ويتأمل النادي شبه الخالي قائلًا لنفسه:

- يا للنساء! ينبغي أن تتأكد من زينتها حتى وهي خائفة من الذهاب إلى منزلها أصلًا!

ومطَّ شفته السفلى بعدم رضا، مضيفًا:

- أتعشَّم ألَّا تستغرق طويلًا.

لكن خُيِّل إليه فجأة أنه يسمع ذلك الأنين.. وفي دهشة تلفَّت حوله في حذر باحثًا عن مصدره، ليقع بصره على الضوء المرتعش القادم من داخل دورة المياه الخاصة بالسيدات، وبدا له أن صوت الأنين يأتي من داخلها.

وتجمَّد (هاني) لنصف دقيقة كاملة على الأقل وعيناه مثبتتان على المدخل، قبل أن يتحرك في حذر، ليرى من بعيد ما الذي يحدث من واجهة المدخل، فقط ليقع بصره على حقيبة (ريم) المفتوحة وبعض أدواتها المبعثرة أمام الحاجز الرخامي الذي يواجه جزء منه الباب، دون أن يجد أثرًا لـ(ريم) نفسها.

وبحث (هاني) في سرعة عن العاملة المسئولة عن المكان بعينيه في الجوار، فلم يجدها..

بالأحرى لم يكن هناك مخلوق واحد سواه قرب المكان.

ومع تغيُّر صوت الأنين إلى حشرجة، شعر (هاني) بالقلق ووجد نفسه يتقدم في حرج من المكان، الذي لم تتوقف أضواؤه عن الارتعاش لحظة واحدة، متسائلًا في حذر:

- (ريم)!! هل تعانين من مشكلة ما بالداخل عندك؟!

لكنه لم يحظ بأي رد..

فقط قبل أن يتقدَّم أكثر لاحظ ذلك الخيط من المياه الدكناء الذي وصل إلى مدخل المبنى، وسال يتقاطر إلى خارجه، مما جعله يقطِّب بشدة، قبل أن يتطلَّع إلى ما داخل المكان الذي لا يراه بوضوح من موضعه خارجه، ويقول:

- (ريم)، هل أنتِ بخير؟!

لم يجبه شيء فيما عدا المياه الدكناء التي ازداد معدَّل تدفُّقها، على نحو جعله يستجمع شجاعته، ليتقدَّم من مدخل المبنى هاتفًا:

- (ريم)!!

لكنه لم يجد لها أثرًا إذ وقف بمدخل المبنى بالفعل!

لا شيء سوى آثار حذاء نسائي ارتسمتْ فوق الأرض، تشير إلى أن صاحبتها قد دخلتْ إحدى المقصورات..

وهي تلك المقصورة مفتوحة الباب والتي تأتي منها تلك المياه الدكناء اللعينة بالذات!

وفي حيرة قال (هاني):

- أتتحدثين عن لمسات الزينة؟ ثم تخوضين في تلك المياه القذرة لتلوِّثي دورة المياه بأكملها؟!

وتقدم إلى منتصف المكان وهو يتابع:

- أنتِ حتى لم تهتمي بإغلاق باب المقصورة عليكِ كما لو أنكِ.....

لكنه صمت فجأة واتسعت عيناه في هلع، وهو يتطلّع إلى داخل تلك المقصورة، التي تدلّت من سقفها جثة (ريم) مشوّهة الوجه، وراحت تتارجح في بطء كالذبائح المُعلّقة، والدماء تغرق جسدها بأكمله وتتقاطر أسفلها لتختلط بتلك المياه الدكناء.

وفي رعب تراجع (هاني) وهو يصرخ:

- لا! مستحيل أن يكون هذا حقيقيًا!

اصطدم في تراجعه بشيء صلب، فحاول الاستدارة إلى الوراء في هلع، لكن قبضة العملاق شديد السواد الذي اصطدم به أطبقتْ على عنقه في قوة، وامتدّتْ ذراعه الواحدة ترفع (هاني) برغم وزنه الزائد، عن الأرض..

وارتعشتْ الأضواء في قوة.. وأصدرتْ المصابيح بالمكان أزيزًا مزعجًا كأنها ستنفجر.

ومن بعيد رأت العاملة المسئولة عن دورة مياه السيدات المبنى المتراقص الأضواء، فقالت في دهشة:

- ما هذا؟ ما الذي يحدث في الداخل بالضبط؟!

أسرعتْ إلى المبنى وبلغتْ مدخله، لتتوقف به لحظة وتتطلّع إلى المكان النظيف الجاف تمامًا، وإلى أصوائه المستقرّة، التي جعلتها تتمتم لنفسها:

- لا بُدّ أنني توهمتُ ما رأيتُ!

كان توشك على مغادرة المكان، عندما وقع بصرها على حقيبة (ريم) وبعض أدواتها فوق الحاجز الرخامي، فتوقفت هاتفة:

- هل يوجد أحد هنا بالداخل؟

ولم تنتظر جوابًا وهي تشاهد أبواب جميع المقصورات مفتوحة أمامها، فتقدّمتْ إلى الداخل لتلقي نظرة قائلة:

- حقيبتكِ وأشياؤكِ عُرضة للسرقة بهذه الطريقة يا.....

كانت العاملة تنوي حقًا إكمال عبارتها، لكن ما رأته جعل وجهها يشحب بشدة وهي ترفع يدها إلى فمها لتمنع شهقة فزع كادت أن تفلت..

ففي إحدى المقصورات، كانت العاملة ترى جثتين ممزقتين، لشاب أميل إلى البدانة ملقًى به، لتستند جثته على أحد جدران المقصورة، ولا يمنعها من السقوط سوى ضيقها، وفتاة محجّبة مُعلّقة في السقف مُشوّهة الملامح..

وباستثناء الدماء التي كانت تغرق أرضية المقصورة وتلوث جدرانها نفسها، كان المبنى كله نظيفًا وجافًا وخاليًا من أي شيء غير طبيعي، على نحو يؤكّد أن القاتل قد أنهى عمله البشع ورحل، دون أن يترك خلفه دليلًا أو أثرًا واحدًا.

****

7- مَكانٌ واحد

تنهَّدَتْ (حنان) في ارتياح، وهي تشاهد نور الصباح، الذي تراه عبر زجاج شرفة شقتها المُغلَقة، والذي كانت تنتظره بفارغ الصبر، والتفتت تتطلع إلى شقتها وأثاثها..

كانت الشقة خالية من أي شيء غامض أو غير مألوف.. صحيح أنها استغرقتْ وقتًا طويلًا لتتفقدها بحذر بالغ، لكنها الان تستطيع تأكيد أنه لا يوجد شيء غير طبيعي فيها.

وكم كانت تجربة مرعبة، مرهقة للأعصاب!

غمغمت لنفسها:

- برغم انه اتضح أن المكان خالٍ، إلا أنه الآن وقد طلع الصُّبح وأشرقَتْ الشمس، لم يَعُد هناك ما يجبرني على البقاء وحدي هنا. لقد تمكَّن شيء ما من الوصول إلى شقتي بالفعل، والكتابة على المرآة، لكنه اثر الرحيل دون أن يتعرَّض لي بأذى، ودون أن أفهم لماذا.

وفركَتْ ذراعها بكفها، وأردفَتْ:

- لا يجب أن أبقى وحدي.

اتجهَتْ إلى غرفتها لتختفي بداخلها بعض الوقت، قبل أن تغادرها وقد ارتدَتْ ملابس الخروج.

وتوقفَتْ لحظة لتلقي نظرة على غرفة المعيشة، قبل أن تنحني لتلتقط الكمبيوتر المحمول الخاص بها، ثم تغادر الشقة وتغلق بابها خلفها.

وبأسفل استقلَّت (حنان) سيارتها، لتقودها إلى منطقة مقصَف بمكان مفتوح للجلوس، وبدا أنها شعرَتْ بالراحة لوجود بعض البشر حولها، فأوقفَتْ سيارتها هناك، وجذَبَتْ الكمبيوتر المحمول لتضعه على رجليها، ثم تشغله وتوصل به مودم اتصال ناقل تتابعي مشترك USB وتفتح متصفِّح الإنترنت.

ثم بدأت تبحث عن حلم القصر تحديدًا، هذه المرة..

وكما بدا من نتائج البحث، فالقصر في الحلم يمثِّل السِّجن والضِّيق ونقص السيولة النقدية أو فقدان الاحترام لشخص بغيض وخاطئ.

إذا رأى ثريّ القصرَ في حلمه، فإن ذلك يعني ارتفاعًا في المكانة، أو سدادًا لديونه.. رؤية القصر من مسافة بعيدة في المنام يعني أيضًا الازدهار.

القصر في المنام يمثِّل شخصًا مجهولًا، أو شخصًا يحافظ على ثبات دينه.

دخول القصر في المنام يعني اكتساب سَلطة، وارتفاع في المكانة، والالتزام الديني المستمر والمتزايد.

ولم تقرأ (حنان) أكثر..

توقفَتْ عند هذا الحد، لتعود بعينيها وتثبتهما على كلمة واحدة.. "السِّجن". لو نظرَتْ إلى الأمر بالاعتبار لحلم الغرفة المُغلَقة بالإضافة للقصر والممرات ولذلك الصوت الغريب الذي كان يحثُّها على الهرب، فالأمر كان أقرب إلى سجن بالفعل، أقرب إلى أنها كانت حبيسة ذلك القصر، وكيان مجهول ما ساعدها على مغادرة القصر وحثَّها على الهرب، فهل تحرَّرت من سجنها بذلك؟

ولكن ماذا عن رسالة مرآة دورة المياه؟ تلك الرسالة التي تتوعدهم -هي ورفاقها جميعًا- في وضوح بالموت.

وما هو أصلًا ذلك القصر؟ ما سرّه؟

حاولتْ أن تبحث عن القصور القديمة المخيفة، واستعرضتْ عشرة من أشهر قصور وقلاع العالم التي ارتبطتْ بأساطير مخيفة عن كونها مسكونة، لكنها لم تجد حتَّى بينها شيئًا شبيهًا بما رأتْ..

ربما كان أقدم ما وجدتْ هي قلعة (كيب) Castel Keep، التي بدأ بناؤها في (نيوكاسل) بـ(المملكة المتحدة) في عام 1080، والتي تُعتبَر أحد أقدم أبنية (نيوكاسل).

لفت انتباه (حنان) أن القلعة كانت تُستخدَم كسجن في القرن السابع عشر، كما استرعى انتباهها كذلك ذِكر أن هناك تقارير، أفادت بأن العديد من الزُّوَّار شاهدوا ظلالًا غريبة وضبابًا لا يمكن تفسيره في أرجاء القلعة، كما أنهم زعموا أنهم قد تعرَّضوا للاعتداء والدَّفع والخدش بالإضافة إلى سماعهم أصوات مختلفة بداخلها.

السِجن.. الظِلال.. الاعتداء والدَّفع.. الكلمات التي راحت تؤكِّد (حنان) على قراءتها..

القصور والقلاع ليس لها مدلول فقط في الأحلام على السِجن، لكن بعضها كان يُستخدَم كسجون للتعذيب بالفعل، كما ترى.

وبالنسبة للظِلال، فقد رأتْ ظِلًّا مخيفًا داخل القصر بالحلم.. ظِلًّا مخيفًا جدًا لم تحب أبدًا اقترابه أو اقتراب صاحبه.

والاعتداء والدَّفع.. لمرتين الآن شعرتْ (حنان) كأن كيانًا يهاجمها في القصر، دائمًا هو كيان لا تراه يسيطر عليها، ويندفع بها في قوة عبر الممرَّات.. فهل يُعَدّ هذا شيئًا من الاعتداء أو الدَّفع؟

واستعرضتْ (حنان) صور قلعة (كيب)..

كانت القلعة تمثِّل مبنًى قديمًا، لكن ليس بقِدَم القصر الذي رأته؛ ذلك القصر كان يبدو أقدم كثيرًا. كما أن القلعة أيضًا بدتْ واضحة في تصميمها كقلعة، لا كقصر ذي نوافذ وأبراج شبه متهدِّمة كما رأتْ.

فما الذي يعنيه هذا إذًا؟

أجفلتْ (حنان) في هذه اللحظة عندما انطلق رنين هاتفها المحمول فجأة، فقطَّبت جبينها وهي تنظر إلى اسم (يوسف) الذي ظهر على الشاشة، والتقطتْ الهاتف لتتأمله لحظة، قبل أن تختار إلغاء الاتصال، ثم تقوم بإغلاق الهاتف.

لن تُضيع وقتها في الاستماع إلى المزيد من الحماقات أو حتَّى التبريرات التي لا معنى لها.. لن تنبِّه حتَّى أحدهم إلى أن الخطر الذي يهدِّد حياتهم جميعًا يبدو أنه يزداد ويقوى في كل لحظة تمضي؛ إنهم لا يستحقون.

ليستمرّ إذًا ذلك الشيء المخيف في القضاء عليهم، ما داموا قد قرَّروا أن يتركوها وحدها، أن ينبذوها كالوباء.. ولترَ كيف سينجيهم ذلك من الموت!

لتبحث هي فقط عن الحقيقة. نعم.. هذا هو ما ستفعله..

والإنترنت ليس كل شيء.. هناك أماكن أخرَى لمن يسعى وراء المعرفة.

وهكذا أدارت (حنان) محرك سيارتها من جديد..

وانطلقت بها إلى جهة أخرَى.

****

عندما أوشكتْ الشمس على المغيب، كانت (حنان) بادية الإرهاق، وهي تغادر إحدى المكتبات الكبرَى متجهة إلى سيارتها.. إرهاق جعلها ترمي بنفسها فوق مقعد القيادة وتغمغم لنفسها:

- لقد تعبتُ اليوم حقًا.. يجب أن أجد لي مكانًا مناسبًا للراحة.

كانت تتفادَى العودة إلى منزلها، لكن فكرة ما جالت برأسها، جعلتها تبتسم في تعب وتقول:

- يا لي من حمقاء! لماذا أتفادَى شقتي؟ ذلك الشيء ارتكب القتل في كل الأوقات، ليلًا ونهارًا، وداخل المنازل وخارجها.. إنه قادر على اصطيادنا بالفعل أينما كنا.

قالت لنفسها هذا، ثم أدارت المحرك لتردف:

- لأذهب إلى شقتي إذًا وأحظَى ببعض الراحة، أنا بحاجة إليها حتَّى أستطيع التفكير جيدًا.

لا تعرف كيف قادتْ سيارتها ولا كم استغرقت من وقت حتَّى تصل إلى ذلك المجمَّع السكني الذي تقطنه، لكنها لم تكد تصل إلى بنايتها، حتَّى وجدت ذلك الحفل هناك في انتظارها.

كانت هناك سيارة شرطة واقفة أسفل بنايتها، وقد وقف أحد الضباط إلى جوار حارس الأمن يكلمه في شيء.

وفي سرعة تقدَّم منها ضابط الشرطة، فور ان أشار إليها مسئول الحراسة، ففتحت باب سيارتها لتغادرها متوجِّسة، وهي تسأل بقلق:

- ماذا هناك أيها الضابط؟

- هل أنتِ الانسة (حنان)؟

- نعم.

قالتها في تساؤل وترقُّب، فشدَّ قامته متابعًا:

- يجب أن تصحبينا الآن؛ هناك تحقيق يجري منذ الصباح الباكر مع أصدقاء مجموعتك كلهم.. لقد قُتل ثلاثة منكم بين ليلة وضُحاها، وأنتِ مطلوبة للاستجواب.

- الاستجواب؟!

قالتها (حنان) في دهشة واستنكار، لكن الضابط قال:

- البعض يتهمونكِ بأنك السبب وراء كل ما حدث.

تغيَّرتْ ملامح (حنان) إلى الغضب، ثم قالت:

- حسنًا، سآتي معكم حالًا.

وتحركت لتغادر المكان معهم.

****

- سيدي، لن يجد أحد دليلًا واحدًا حتَّى على منطقية مثل هذا الكلام. كيف أكون أنا السبب في قتل أصدقائي؟ صحيح أن الأمر انتهى بنا الآن إلى ثمانية بعد أن كنا خمسة عشر شخصًا، أي أن نصفنا تقريبًا قد قُتلوا بالفعل، لكن لا يد لي في ذلك.. أنا مثل الجميع، حائرة تائهة، لا أعرف لماذا يحدث ما يحدث ولا كيف.

طلبتُ أن نكون معًا، اتهمَتْني الحمقاء (إنجي) بأنني أسعى لجمع الكل معًا، حتَّى يسهل القضاء عليهم بضربة واحدة.. لكنني قدَّمتُ اقتراحي بدافع البحث عن الأمان.

صحيح أنني لا أستطيع نفي تواجدي مع أي شخص منهم أثناء وقوع أي جريمة، لكن -على الأقل- لم تسجل كاميرات المراقبة للمُجمَّع السكني الذي أقيم فيه مغادرتي له اليوم في الوقت المحدد لمصرع (ريم) و(هاني)، وسيارتي ظلت واقفة في مكانها طوال الليل حتى تسجيل وقت خروجها من البوابة، كما أنني اراهن أن أكثر أصدقائي أيضًا لا يملكون أدلة تنفي عنهم الاتهام.

ذلك الشيء الذي يطاردنا يقتل بعشوائية تامة.. من كان يتوقّع منّا أن يقتل أحدنا في ساعة مُحدّدة أو يوم مُحدّد؟

الواقع أنني أنا التي تتهم (إنچي) بأنها تسبّبت في كل هذا.. هي التي قادتنا إلى تجربة الكهف اللعينة، التي يبدو أنها السبب فيما نعانيه الآن.

كانت (حنان) مُرهقة للغاية وهي تقول هذا في مكتب ضابط التحقيق.. واستمع إليها هذا الأخير، قبل أن يقول:

- أنت تصرّين على ردكِ إذًا.

قالت في تعب:

- سيدي.. أنت تستجوبني منذ أكثر من ساعتين كاملتين، ولا أجد في كل ما قيل أي دليل ضدي.. لا أجد سوى اتهام (إنچي) الذي أبادلها إياه، فلماذا لا تستجوبونها أيضًا؟

قال الضابط في حزم:

- ومَن أخبرك أننا لم نفعل؟ لقد حققنا مع جميع رفاقكِ منذ الصباح الباكر.. الوحيدة التي لم نعثر عليها إلا بعد طول الانتظار كانت أنتِ.

قالت (حنان):

- هذا لأنهم قرروا استبعادي -كما قلتُ- بسبب اتهام (إنچي) لي.. وبسبب غضبي، قطعتُ كل اتصالاتي بهم.

فكر الضابط قليلًا فيما قالت، قبل أن يقول:

- على كل حال، اتهامكِ سيجعلنا نستجوبها ثانيةً الآن.

وأشار لها بيده متابعًا:

- يمكنكِ الانتظار بالخارج.

نهضتْ في إرهاق، وغادرت الغرفة ليستقبلها رفاقها بالخارج بنظرات صامتة، فألقتْ هي عليهم نظرة متضايقة، قبل أن تنتحي بنفسها بعيدًا عنهم.

لكن (يوسف) تحرك في بطء ليغادر جمعهم إليها..

اقترب حتّى صار على بعد خطوات منها، قبل أن يسأل:

- كيف حالكِ يا (حنان)؟

رفعت رأسها إليه، وتأملته بعينيها لحظات، قبل أن تقول في لهجة لانمة:

- الآن فقط تتذكر السؤال عن حالي؟

قال بسرعة:

- لقد حاولتُ الاتصال بكِ صباح اليوم لـ....

لكن (حنان) قاطعته وهي ترفع يدها طالبة أن يتوقف عن الكلام، لتقول:

- أعرف.. لكنك اشتركتَ معهم في هذه المهزلة.

أسرع (يوسف) يقول:

- لا.. أنا لم أؤيد اتهامكِ بشيء في الاستجواب.

ابتسمت (حنان) في سخرية مُرهقة وقالت:

- يبقى إذًا أنك انضممتَ إلى مؤيدي فكرة مقاطعتي.

- لقد اتصلتُ بكِ يا (حنان).

هكذا أسرع بالرد عليها، وأردف في لهجة آسفة:

- أنا أشعر بالندم لأن سؤالي جاء متأخرًا، لكنني اتصلتُ بكِ صباح اليوم للاطمئنان عليكِ، ولإخبارك بما حدث أيضًا.. لقد قوجئنا بهم يطلبوننا جميعًا للتحقيق.

قالت بنفس ابتسامتها الساخرة المريرة المرهقة:

- دعنا نشكرهم إذًا.. لولاهم ما فكَّر أحد أبدًا في الاتصال بي.

maktabbah.blogspot.com

- ولكن.....

عادت ترفع يدها لتقاطعه قائلة:

- من فضلك.. اتركني الآن وحدي يا (يوسف).. أنا متعبة بالفعل، وبحاجة لأن أظل وحدي لبعض الوقت.

مع قولها هذا اضطر (يوسف) لأن يصمت ويبتعد عنها، لكن لبضع خطوات فحسب، ليمنحها تلك الخصوصية التي طلبتها. وألقى نظرة بطرف عينه على (إنجي)، التي دخلت إلى غرفة الاستجواب من جديد، ثم أطرق برأسه أرضًا..

لم يكن يكذب فيما قال؛ لقد ندم حقًا على ما فعل، ويشعر بالضيق من نفسه إلى أقصى حد.. إنه يحب (حنان).. يحبها ويدرك جيدًا أنه يحبها.. وبرغم ذلك فقد خذلها مثلهم جميعًا.

أقل ما كان يجب أن يفعله هو الوقوف بجانبها ودعمها.. ولا يعرف لماذا لم يفعل! هل صدَّق ما قالته (إنجي) عنها ولو لبعض الوقت؟

(حنان) على حق في تلك المعاملة الجافة التي تعامله وتعامل بها الجميع.. إنه يشعر بالاستياء من نفسه.

رفع رأسه إلى أعلى وتنهد في قوة.. مَن أفسد شيئًا عليه إصلاحه.. عليه أن يتحمَّل طريقتها ولهجتها إذًا، حتَّى يصلح معها الأمور وتصفو تجاهه.

حانت منه التفاتة إليها، ليجدها قد جلست على ذلك المقعد الخشبي العريض عديم الظهر، وأرجعت رأسها إلى الوراء، لتستند به إلى الجدار، وتغمض عينيها كأنها في سبيلها إلى النوم.

ونامت (حنان) بالفعل.. نامت من فرط التعب والإجهاد الذهني والعصبي والبدني..

لا تعرف كم من الوقت استغرقت في النوم، لكنها استيقظت فجأة على صوت باب غرفة الاستجواب يُفتح، فالتفتت لتجد رفاقها ما زالوا واقفين، وأن مَن غادر الغرفة هو الضابط الذي كان يستجوبهم.

ولم تستطع تخمين مقدار ما مضى من وقت برغم ما بدا على وجهه من تعب، وهو يقول:

- يجب أن تبقوا جميعًا في مكان واحد معًا، وتحت المراقبة.

وأدار عينيه في وجوههم ليضيف:

- لا توجد لدينا أدلة حتَّى الآن تكفي لاحتجاز أي منكم أو لاتهامه بشكل فعلي.. كلها مجرد تخمينات واستنتاجات لا أكثر.. ولذلك وحتَّى نضمن السيطرة على ما يحدث للجميع وفهمه قدر الإمكان، يجب أن تظلوا جميعًا معًا في مكان واحد.

قالت (حنان) في صوت متكاسل لم يفارقه النعاس:

- أي كما اقترحتُ أنا سابقًا.

تطلّع إليها الجميع، وقالت (إنچي) في عصبية:

- ولكن هذا خطر يا سيدي.. قد تكون هي السبب فيما يحدث، ووجودها معنا....

لكن الضابط قاطعها قائلًا:

- لذلك قلت إنكم ستكونون تحت المراقبة.

قال (مدحت) في هذه اللحظة وهو يمسح على شعره الأشقر:

- حسنًا.. يمكننا أن نحجز جميعًا في فندق.. جناحًا للشباب وآخر للفتيات.. أعتقد أن المراقبة ستكون سهلة على هذا النحو.

لكن (إنچي) قالت:

- لا.. أنا أقترح فيلتي.

التفت الجميع إليها بنظراتهم المتسائلة ومعهم الضابط فتابعتْ:

- لو أذنتَ لي يا سيدي.. لدينا فيلّا ليستْ بعيدة، وخالية في الوقت الحالي، ويمكننا أن نبقى فيها، كما يمكن مراقبة كل مكان تريدون مراقبته منها؛ فهي مزودة بنظام كاميرات مراقبة.

تبادل الجميع النظرات، قبل أن يقول الضابط:

- سيكون علينا فحصها والتأكد من أنها مكان جيد ومناسب.

كانت (حنان) هي الوحيدة التي تبقّت واقفة وحدها بعيدًا عن الجمع، الشيء الذي جعل الجميع يلتفتون وينظرون إليها، كأنما ينتظرون منها ردًا أو اعتراضًا ما..

وكانت (حنان) ترمي (إنچي) بنظرة طويلة، بادلتها الأخيرة نظرة مماثلة لها..

نظرة لم يقطعها سوى صوت (يوسف) وهو يتساءل:

- أعتقد أن أحدًا ليس لديه اعتراض؟

أدارت (حنان) عينيها إليه، ثم تطلّعت إليهم جميعًا وهي تهز كتفيها قائلة:

- فليكن.. لا مانع عندي.. سأذهب معكم.

وكان ما اتفقوا عليه.

****

أدار الشباب الثمانية أعينهم في أرجاء الفيلّا التي أخذتهم إليها (إنچي)، والتي دلّت من مظهر الأتربة التي غطّت أكثر ما بها، والأقمشة التي وُضعتْ فوق الأثاث، على أن أحدًا لم يزُرها منذ وقت طويل..

وتمتمت (ولاء)، ذات الشعر البني الشديد القِصَر:

- المكان مُوحِش وكئيب!

كانت حريصةً على أن يكون صوتها خفيضًا لا يبلغ مسامع (إنچي)، لكن الأخيرة سمعتها برغم ذلك، وقالت:

- لن نقضي عُطلة نهاية الأسبوع هنا يا (ولاء).. لسنا هنا للاستمتاع؛ نحن هنا لمعرفة حقيقة ما يحدث، ويفرض حمايةَ بقيتنا مما لحق بمن سبقونا من أذى.

وفتحت ذراعيها على نحو مسرحي مضيفة:

- الآن بعد أن فحص رجال الشرطة الڤيلّا، وبعد أن بذلنا مجهودًا مضنيًا أصلًا في إقناعهم بأن نقضي ليلتنا هنا، وبعد أن تفقدتم جميعًا المكان بشكل عام، يمكنكم اختيار أي غرف تريدون، سواء في الطابق العلوي منها أو السفلي.. الڤيلّا واسعة رَحبة كما ترون.. هناك بعض الأتربة، لكني لاحظتُ أن أغلبها في قاعة الڤيلّا، وأن الغرف هي أكثر الأماكن نظافة هنا لحسن الحظ.

قال (تامر):

- من المؤسف أننا لن نستطيع التدخين أو الشُرب هنا.

ضربه (أشرف) بذراعه هامسًا:

- صهٍ! لا تنسَ أنهم بدأوا يراقبوننا بالفعل.. أتريد أن توردنا مورد التهلكة؟

أشار له (تامر) إشارة صامتة بمعنى أنه يعتذر عن خطئه، في حين قالت (حنان):

- سابحث عن مكان لأنام فيه.. أنا مرهقة جدًا.

أسرع (يوسف) يقول لها:

- لكنني كنتُ أريد التحدث إليكِ في.....

لوّحت (حنان) بيدها مقاطعة وهي توليه ظهرها متجهة إلى إحدى غرف الطابق الأرضي:

- فيما بعد يا (يوسف).. فيما بعد.

صمت (يوسف) في ضيق، أمّا (انچي) فعقدتْ ساعديها على صدرها وقالت بلهجة خاصة:

- هل ستنامين وحدكِ؟

توقفت (حنان) فجأة مع السؤال قبل أن تبلغ الغرفة، وقالت بلهجة منذرة بعاصفة، دون أن تلتفت إلى الخلف:

- ماذا يعني هذا؟

أسرعَتْ (ولاء) تقول في لهجة حاولَتْ أن تضفي عليها طابع البساطة:

- لا يعني شيئًا بالطبع سوى أن يبقى بعضنا مع بعض.. الفتيات هنا ثلاث فقط، ويمكننا أن نقضي ليلتنا معًا في غرفة واحدة بالتأكيد.

قالت (حنان) بنفس لهجتها المنذرة:

- سأنام وحدي، إنه قولي الأخير.

وتابعت وهي تواصل التحرك نحو غرفتها:

- وسيسعدني أن تحاول إحداكما أن تدخُل حتّى عليّ غرفتي، دون أن تستأذن فآذن لها.

كانت قد بلغت باب الغرفة مع اخر كلماتها، ففتحت الباب وأضاءت الغرفة في هدوء، قبل أن تدخل وتغلق الباب خلفها، الأمر الذي جعل (انچي) تسأل في غضب:

- اللعنة! أي أسلوب هذا؟!

- الأسلوب الذي بدأتِ أنتِ به.

فوجئت بهذا الرد من (يوسف)، فالتفتت إليه مستنكرة، لكنه واجهها قائلًا:

- لقد اتهمتها بيننا، واتهمتها رسميًا أمام رجال الشرطة.. ماذا تتوقعين منها؟ إننا بشر.

قالت في حدة:

- أنت في صفها الآن إذًا.

لوح بذراعه في غضب قائلًا:

- ويبدو أنني أخطأت بأنني لم أفعل منذ البداية؛ ما الذي جنته لتستحق كل هذا؟

وتركهم ليتحرك نحو إحدى الغرف بدوره، فهتف به (أشرف):

- مهلًا يا رجل! ألن تسهر معنا؟

- لا أريد.

هكذا أجاب في عصبية مُقتضبة، وهو يأوي إلى غرفة بدوره، فهزّ (أشرف) كتفيه وهو يقول:

- كما ترغب!

وأدار عينيه في باقي الوجوه سائلًا:

- أمّا الباقون فأعتقد أنهم سيشاركوننا السهر، أليس كذلك؟

لكنه فوجئ بأن بعض الوجوه لا تعطي انطباع الحماس للفكرة إلى هذا الحد، فقال في دهشة:

- ماذا دهاكم جميعًا؟!

قالت (ولاء) في ضيق:

- اليوم كان طويلًا ومرهقًا يا (أشرف).

وقال (مدحت):

- لقد أخذونا للاستجواب منذ الصباح الباكر.

وأمّن (تامر) على قوليهما قائلًا:

- بالفعل.

قال (أشرف) في دهشة:

- حتّى أنت يا (تامر)؟! ألن يسهر أحد إذًا؟

قالت (إنچي):

- أنا لن أنام الآن.. سأبقى ساهرة.

وقال (وائل):

- وأنا لا أشعر بعد بالرغبة في النوم.

وتردّد (تامر) لحظة قبل أن يقول:

- وأنا سأبقى ساهرًا معكم.

سأله (أشرف):

- لماذا وافقت على فكرة النوم إذًا؟

لوّح بيديه بلا معنى، كأنه يعترف بالفعل أنه لا يعرف ماذا يريد بالضبط، فأومأ (أشرف) برأسه قائلًا:

- فليكن، أعتقد أن أربعة ما زال عددًا جيدًا.. لنُعِدّ لسهرتنا إذًا.

قال (مدحت):

- حسنًا.. تصبحون على خير.

ولوّحت (ولاء) بيدها أيضًا قائلة:

- نعم.. تراكم في الصباح.

وسرعان ما غادرا قاعة غرفة المعيشة الفسيحة، ليغيب كل منهما في غرفة.

****

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا، عندما تثاءب ذلك المراقب من رجال الشرطة في غرفة المراقبة، والذي جلس يتابع شاشات تليفزيونية صغيرة تراقب أنحاء مختلفة من الڤيلّا من الداخل والخارج، والتي بدت كمبنًى ساكن تمامًا، حتّى أن الرجل قال لزميله في ملل:

- الأمور مستقرّة إلى حد كبير.. نصفهم ذهبوا للنوم منذ فترة.. النصف الآخر ما زالوا ساهرين، هذا صحيح، لكنهم شباب عابث لا أكثر.. لا يزيد ما يفعلونه عن الثرثرة والضحك معظم الوقت.

ابتسم زميله وقال:

- هذا لأننا نراقبهم يا صديقي.. أراهنك أن الجلسة بريئة المظهر التي تراهم عليها الآن، ما هي إلا وضع اضطراري، ولولا مراقبتنا لهم، لظهرت أصناف المخدّرات والخمر.. أنا أعرف أمثالهم جيدًا، لا ينفقون أموالهم إلا على ما يُتلفهم، ورؤوسهم اللعينة لا تمتلئ إلا بالمفاسد.

قال الأول:

- ما يهمني الآن سواء كنا نشاهد حقيقتهم أو زيفهم، كيف سنقضي نحن ليلتنا في هذا الملل؟ سيقتلنا الملل يا رجل في جلستنا اللعينة هذه. دعنا نصنع لأنفسنا بعض الشاي على الأقل.

أومأ الثاني برأسه موافقًا، وقال:

- معك حق.. فليكن.. ابقَ أنت هنا، وسأنهض أنا للبحث عن موقد وشيء يصلح لإعداد الشاي.

قال الأول:

- لا تنسَ رجالنا الثلاثة بالخارج أيضًا.

نهض الثاني وهو يقول:

- لا تقلق.. لن أنسى.

غادر غرفة المراقبة التي اتضح أنها مبنى مستقلّ مُلحَق بالڤيلّا من الخارج، وأغلق بابها خلفه، ووقف يتطلّع لحظة إلى الظلام خارج الڤيلّا، قبل أن يسير في الحديقة المحيطة بها مناديًا على الرجال..

أمّا في غرفة المراقبة نفسها، تراجع زميله بظهره ليغوص في مقعده مغمغمًا في تكاسل:

- يا لأولئك الأثرياء! أين يجدون كل تلك الأموال ليبنوا فيلّا فسيحة كهذه، ويزودونها بالكاميرات ثم يهملونها على هذا النحو؟ إن الأتربة التي رأيتُها بها، تشي بأن أحدًا لم يقرب المكان طوال سنة كاملة على الأقل.

وابتسم وهو يقول شاردًا:

- متى يصبح المرء بمثل هذا الثراء؟

على أن عينيه اللتين ينقِّلهما بين شاشات المراقبة التليفزيونية في تراخٍ، التقطتا شيئًا اتسعت له ابتسامته الساخرة وهو يقول:

- إحدى الكاميرات بدأت تتلف! أراهن أنه بسبب الإهمال.. بالتأكيد هم لا يهتمون بعمل أي صيانة لها أو ما شابه.

كانت عيناه معلَّقتين بإحدى الشاشات؛ حيث ظهرت في ركن منها بقعة سوداء صغيرة، جعلت هذا يخطر بباله، لكنه اعتدل في استغراب وتوتر وهو يفرك عينيه في دهشة، ويراقب تلك الظاهرة العجيبة...

الشيء الذي بدا له في أول الأمر كأن تلك البقعة السوداء تتسع وتتسع ببطء شديد، حتى خُيِّل إليه أنه خداع بصري من كثرة وطول تحديقه إليها، إلا أنه لم يلبث أن أدرك الحقيقة..

البقعة السوداء تتسع بالفعل..

وتكاد تشمل أحد الركنين السفليين للشاشة بأكمله..

ثم ارتعش الضوء الخافت في غرفة المراقبة فجأة، وظهرت شوشرة غريبة اعترت كل شاشات المراقبة، ومال المراقب إلى الأمام يحدق بدهشة شديدة إلى ذلك الذي انبثق من شاشة المراقبة، وراح يسيل ليتقاطر منها داخل غرفة المراقبة نفسها..

سائل أشبه بمياه دكناء!

وفي الخارج، عاد زميله حاملًا صينية صغيرة عليها كوبان من الشاي، مغمغمًا:

- لن تصدِّق ما وجدته يا رجل.. ثمة باب خلفي يؤدي إلى مطبخ القيلًا، دخلته ووجدت به ما يساعدنا على صُنع بعض الشاي وعلى إعداد بعض الطعام لنا أيضًا إذا ما شعرنا بالجوع.

كان يتحدث مبتسمًا كأنما زميله يسمعه بالفعل، برغم أنه لم يكن قد بلغ الغرفة بعد، لذلك هاله - إذ بلغها- أن يجد تلك المياه الدكناء التي تسيل من أسفل بابها، والتي جعلته يتساءل في دهشة:

- ماذا حدث بحق الجحيم؟ من أين تأتي هذه المياه؟!

نقل الصينية ليحملها على يد واحدة ومد يده الأخرى ليفتح الباب بسرعة...

ثم تراجع في رهبة قائلًا:

- يا إله العالمين!

فما رآه كان يؤكِّد أن ذلك الشيء قد بدأ هجمته الجديدة في مكان اجتمع فيه كل من يسعى في أثرهم.. كل من يتوعَّدهم بالموت.

****

8- المَصيَدة

داعَبَت (إنچي) قلادة صغيرة مُعلَّقة بسلسلة عنقها الذهبية، في جلستها مع رفاقها الثلاثة الذين شاركوها السُّهر في هذه الليلة، إذ يجلسون فوق الأرض في قاعة غرفة المعيشة الواسعة، ولا يكادون يفعلون أي شيء.

وسأل (تامر):

- أما مِن شيء يمكننا أكله أو شربه هنا؟

قالت (إنچي):

- لا أنصحك بأي ماكولات قد تجدها في المطبخ؛ الفيلا مهجورة منذ وقت طويل، وأهلي لم يأخذوا كل ما فيها.. هناك بعض الأطعمة، لكنها لن تزيد عن كونها بعض المعلبات الفاسدة حتمًا.

وقال (أشرف) في سخرية:

- إلا إذا كنت تطمح إلى بعض الشاي، مثل مراقبينا.

قلب (تامر) شفته السفلى في غير رضا، وقال:

- الشاي؟! بالطبع لا.

هزَّت (إنچي) كتفيها وقالت:

- لم نجد الوقت لإحضار شيء على أية حال، لا طعام ولا أية مشروبات أخرَى.

سألها (تامر):

- وما هي الفرصة في أن نطلب خدمة التوصيل بالهاتف؟

لكن (إنچي) لم تبالِ بإجابة سؤاله هي أو سواها، في حين تساءل (وائل):

- إلى متى تتصورون أنه قد يدوم هذا الوضع؟

قالت (إنچي) وهي مستمرة في مداعبة قلادتها:

- لا أعرف، لكن ليس كثيرًا.

سألها (أشرف):

- وما أدراكِ؟

هزَّت كتفيها من جديد وقالت:

- ما قلتُه ليس سوى استنتاج.. لقد اجتمع الكل هنا.. وعاجلًا أو آجلًا، أتوقع هجمة من تلك الشيء الذي يسعى في أثرنا. لماذا حسبتهم أصرُّوا على أن نكون معًا إذًا؟

تساءل (تامر):

- تُرَى مَن سيذهب ضحية تلك الهجمة المُنتظَرة؟

قال (وائل) متذمِّرًا:

- إذا كان هذا هو كل ما ستدور حوله أحاديثكم، فسأنهض لألحق بمَن ناموا.

وقال (أشرف):

- نعم.. دعونا نغيِّر الموضوع.

أمّا في غرفتها، فلم تكن (حنان) قد نامتْ عندما أوت إليها.. فقط لم تكن ترغب في التحدُّث مع أو مجالسة اي منهم.. استمعَتْ لحظات إلى أحاديثهم، التي دلّتها على أن المزاج العام لا يسمح بالمرح هذه المرة، ثم لم تلبث أن ألقتْ بالأمر برمّته وراء ظهرها، وهي تفتح الكمبيوتر المحمول الخاص بها، الذي لم تنس إحضاره.

وأوصلتْ (حنان) أداة الاتصال بشبكة الإنترنت، قبل أن يلتقي حاجباها وهي تتأمل الشاشة التي أشارت إلى ضعف شبكة الاتصال في المكان مغمغمة:

- هذا ما كان ينقصنا!

وزفرتْ في حنق، مضيفة بنفس الصوت الخفيض:

- شبكة الإنترنت لدينا هي الأسوأ في العالم بلا مُنازِع، والآن نختار أن نبيت ليلتنا في مكان سيئ التغطية!

ضغطتْ على زر الاتصال، وانتظرتْ فترة حتّى تم الاتصال الضعيف، وحاولتْ فتح المتصفِّح مُنتظِرة تحميل الصفحة الرئيسية، لكن بدا أنها ستنتظر طويلًا بلا جدوى.

- لا أمل بالفعل!

قالتها ساخطة، ثم فكرّتْ في أن تجرب تغيير موضع الجهاز نفسه، لعل الأمر يتحسّن..

وعندما أظهرتْ الشاشة تحسُّنًا في الاتصال، عادت تعيد الاتصال.. لكن بلا فائدة، مما جعلها تقول في عصبية شديدة:

- لماذا يُظهر هذا البرنامج الأحمق أن الإشارة قد تحسّنت هنا إذًا؟!

وانتزعت أداة الاتصال، لتلقي بها في حقيبتها، وأغلقتْ جهاز الكمبيوتر في عصبية، ثم استلقتْ على ظهرها، مغمغمة:

- يبدو أنه لا مفر من محاولة النوم.

قالتها برغم أنها لم تكن تشعر بالرغبة في النوم..

ولذا كان من الطبيعي أن تظلّ عيناها مفتوحتين تحدّقان إلى ظلام الغرفة وهي تفكر..

لماذا يحدث ما يحدث؟

كانت قد وضعتْ حتّى الآن فرضية منطقية لم تجد لديها سواها من الأساس؛ ذلك الشيء القاتل الذي يسعى في أثرهم، يعاقبهم نتيجة دخولها القصر..

لا تفهم أي قصر هو، ولا ما الخطأ الذي ارتكبته بالضبط، حتّى تلقّى هي ورفاقها جميعًا ذلك المصير الذي يهدّدهم به.. الموت.. الموت للجميع. لا تفهم حتّى لماذا تكررت زياراتها في الحلم لذلك القصر المشؤوم، الذي لم ترد قط من قبل، لكن يبدو أنها حتّى بعد أن غادرته، ووجدت نفسها ملقاة وسط الأوحال المغطّاة بالمياه خارجه، لم يخلّصها ذلك من المصير المحتوم.

فكيف السبيل إلى الخلاص إذًا؟

وفجأة استعاد عقل (حنان) مشهدًا بعينه...

مشهد الأرض الترابية في الحلم التي استحالتْ إلى أوحال بفعل الأمطار الشديدة، حتّى ان الماء كان يجعلها زلقة للغاية، ويغطيها بطبقة ملحوظة..

ثم وجدتْ عقلها يقفز إلى مشهد الكتابة بالمياه الدكناء في دورة المياه بشقّتها..

وشعرت (حنان) بالانفعال يسري في عروقها..

إنها هي..

تلك المياه الدكناء، ما هي إلا نفس المياه الموحلة التي وجدت نفسها وسطها خارج القصر.

هناك رابط ما إذًا.. كأن الأمر صورة من صور الانتقال..

عند هذه النقطة توقفت (حنان) عن الاسترسال مع أفكارها، وهي تنصت إلى تلك الصوت المألوف..

صوت قطرات المياه..

وسرت في جسدها قشعريرة باردة، وهي تثب كالملسوعة لتبحث يدها عن هاتفها المحمول، وأسرعت تشعل الكشاف الضوئي فيه، لتسلطه فورًا باتجاه مصدر الصوت، باحثة عن تلك القطرات..

كانت أرضية الغرفة عارية لا يغطيها أي سجاد..

وإلى جوار فراشها، كانت بقعة من مياه كونتها قطرات تتقاطر من السقف..

قطرات من مياه دكناء.

واتسعت عينا (حنان) في ذعر..

ثم قفزت فجأة تغادر فراشها وتختطف جهاز الكمبيوتر الخاص بها وحقيبتها، قبل أن تندفع لمغادرة الغرفة..

وفي دهشة، نظر إليها رفاقها الجالسون بالخارج، وهي تسرع باتجاه باب الڤيلا، فهتف بها (أشرف):

- إلى أين؟!

لكنها لم تبالِ به، واندفعت تجري تجاه الباب، فنهض واقفًا واندفع وراءها، و(إنچي) تهتف:

- يا إلهي! إنها تحاول الهرب.. حاولوا إيقاف هذه اللعينة!

قفز (أشرف) مع كلماتها بكل ما يملك من قوة، وقبض على ذراع (حنان) التي كانت تحاول فتح باب الڤيلا، قائلًا:

- كلا.. لن أسمح لكِ بالرحيل بالآن.

حاولت (حنان) أن تفلت ذراعها من قبضته هاتفة في سخط:

- اترك ذراعي أيها الغبي.. ستموتون.. سنموت جميعًا.

لكن (أشرف) بدأ يجذبها إلى الداخل في قوة، حتى أن جذبه لها تسبب في سقوط الكمبيوتر المحمول من يدها ليتهشم فوق الأرض، و(إنچي) و(وائل) و(تامر) يسرعون إليهما..

وصرخت (حنان) في غضب:

- اتركني أيها الوغد!

وركلته في ساقه، الشيء الذي جعله يجذبها من شعرها في قسوة قائلًا:

- سأقتلكِ أيتها اللعينة!

وإثر الفوضى الحادثة، انفتحت أبواب الغرف الثلاثة بالتتابع ليغادرها (يوسف) و(مدحت) و(وولاء) بدورهم، والأخيرة تتساءل في دهشة بالغة:

- يا إلهي! ماذا يحدث بالضبط؟!

وهتف (يوسف) في غضب وهي يسرع نحو (حنان) و(أشرف):

- اترك (حنان) يا (أشرف).. ما الذي تفعله بها؟!

أسرعت (إنجي) تقول في حدّة:

- لا، لن يتركها.. تلك اللعينة كانت في سبيلها إلى الهرب، ولمّا حاول إيقافها، ركلته. وهي تهدّدنا جميعًا بالموت! لن نتركها قبل أن نعرف لماذا أرادَتْ الرحيل فجأة؟ وإلى أين؟

لم يبالِ (يوسف) بما سمع، ووجّه حديثه إلى (أشرف) قائلًا في صرامة:

- قلتُ لكَ اتركها يا (أشرف)!

قال (أشرف) في عناد، وهو يجذب شعر (حنان) أكثر فتصرخ:

- وأنا لا آخذ الأوامر من أحد، لن أتركها وافعل ما شئتَ!

انقضّ (يوسف) عليه بلكمه بعنف، وأفلت (أشرف) (حنان)، ليشتبك معه في قتال شرس..

وللحظات توقفت (حنان) ترمق القتال الدائر في توتر شديد..

لكن (إنجي) صاحت:

- لا تتركوها تهرب.

أسرع (وائل) و(تامر) يمسكان بـ(حنان)، وعادت هي تقاوم بقوة صارخة:

- اتركوني أيها الأغبياء.. أفلتوا بحياتكم.. سنموت جميعًا!

ثم حدث ذلك الأمر الرهيب فجأة..

لقد تراقصَتْ أضواء القِبلّا وارتعشَتْ بقوة، ثم تحطم أحد الجدران فيها، لتندفع منه تلك المياه الدكناء غزيرة، كأنها قادمة من بحر، لتطيح بقطع الأثاث والأشخاص الواقفين أنفسهم!

واندفعت (حنان) بقوة -وقد تحرّرت ممن يمسكان بها- لترتطم بالباب، ثم تسقط في المياه، التي ارتفعت إلى ما يتجاوز نصف المتر فوق مستوَى الأرض في مشهد مخيف..

وعندما حاولَتْ النهوض، وأبصرَتْ رفاقها جميعًا يحاولون النهوض بالمثل، وقد هالهم الموقف، لاحظَتْ ذلك الشيء، الذي رأته (إنجي) بدورها فهتفَتْ:

- احترسوا!

فمن وسط الماء، برز فجأة ذلك العملاق..

عملاق مخيف، ارتفعت قامته إلى ما يتجاوز الثلاثة أمتار طولًا، وبدا جسده الرمادي مغطّى بما يشبه شعرًا أشهب طويل الخصلات، حتّى أنه بدا كجدائل من الخيوط التي تسيل منها المياه التي خرج منها، فيما عدا رأسه الأصلع الكبير.. وأطلّت من عينيه الحادّتين المخيفتين في وجهه البشع نظرة رهيبة، جعلَتْ (ولاء) تصرخ في هيستيريا، و(وائل) يهتف وقد أفسدَتْ المياه الدكناء رونق ملبسه وشعره:

- يا إلهي! ما هذا الشيء؟!

ومن فم هذا العملاق، انطلقت عبارة بلغة غريبة من مقطعين، لم يفهم أحدهم منها حرفًا، لكن (حنان) أدركَتْ أنه يتوعّدهم بالموت، فصرخَتْ:

- اهربوا، هذا الشيء سيقتلنا جميعًا!

لكنها فوجئت بـ(أشرف) يقفز إليها ويصفعها في قوة صارخًا:

- محال أن أسمح لكِ بالهرب.. أنتِ السبب في هذا كله!

كادت الصفعة تفقدها توازنها، الذي حاولت ألا يختل فتسقط وسط المياه ثانيةً، إلا أنها فوجئت بقبضتيه تطبقان على عنقها وهو يدفعها ليصدمها بالباب في قوة، مضيفًا في غضب:

- أيًا ما كان الأمر، وإن كان موتنا جميعًا لا مفر منه، فستكونين أنتِ أول الموتى.

وفي قوة أطبقتْ قبضتاه على عنقها ليخنقها، ودارت عينيَ (حنان) بحثًا عن (يوسف)، لكنها وجدتْ أن المياه قد ألقته بعيدًا..

بعيدًا بما يكفي مع مقاومة المياه لحركته لأن ينجح (أشرف) هذه المرة في قتلها، دون أن يوقفه أحد.

****

أمسكتْ (حنان) بذراعي (أشرف).. حاولتْ أن تبعد يديه اللتين تحاولان خنقها..

غامت عيناها بالدموع، وتحشرج صوتها وانفاسها تختنق..

وفي يأس رأت (يوسف) يهتف بمنتهى الغضب وهو يجدّ الخطى نحوها:

- اتركها أيها الحقير!

لكن نجدتها جاءت بغتة، عندما اندفع ما يشبه سوط أسود من قلب المياه، والتف حول عنق (أشرف) بإحكام، الشيء الذي جعل عينيه تتسعان في ذعر، ويداه تفلتان من حول عنقها، قبل أن يرتفع به السّوط في فراغ قاعة غرفة المعيشة فوق مستوى المياه تمامًا..

ونفضه ذلك السوط في قوة، كأنما ينفض عنه ما يبلّله من المياه، قبل أن يتحرك به كثعبان كبير التف حوله، ليقترب به من الوحش العملاق، الذي حدّق إليه بعينيه الحادتين المخيفتيْن، دون أن يبالي برفسه ومحاولاته المستميتة للتخلّص من السُوط الغليظ الذي التفَّ حول عنقه على نحو احتقن معه وجهه بالدماء..

وتصاعد صوت قرقعة مخيفة مع شهقة (أشرف)، وعنقه يتحطّم في مشهد بشع، فينتفض جسده في قوة ثم يتراخَى تمامًا، ليلقي به الوحش في المياه بعنف.

كان الجميع قد تسمّروا مع ذلك المشهد، إلا أن (إنجي) كانت أول من أفاق منهم من صدمته، لتهتف:

- أرأيتم؟ هذا الشيء يحرسها.. هذه اللعينة ستجلب كل الوبال علينا.. إنه حارسها.

التفت الرفاق نحو (حنان) في توتر شديد، فتراجعتْ هي وقالت:

- تبًا لكِ يا (إنجي)! عليكم اللعنة جميعًا! أنا لا أفهم ما يحدث أيضًا، لكنه جيد.. هذا الشيء اللعين يحميني لسبب مجهول، وهذا يعني أن أفضل ما أفعله الآن، هو أن أستغل الفرصة للهرب، وليأتِ دور الفهم فيما بعد.

واستدارت إلى الباب لتفتحه، لكنها فوجئت به يتحطّم أيضًا، فيفتح أمامها كما لو أنه لم يعد قادرًا على الصمود أمام ضغط المياه، لتندفع المياه خارج الڤيلّا، التي غادرتها (حنان) مُرغمة محاولة ألا تسقط..

ومع تحرُك رفاقها ليحذوا حذوها، أطلق ذلك الوحش صيحة قوية مخيفة، وارتفعتْ من وسط المياه أسواطه السوداء الغليظة..

أمّا في الخارج، بدا أن المياه لن تغمر الحديقة كلها بنفس الارتفاع الذي كان بداخل الڤيلّا، خاصةً والأرض تتشربها، فلا تكاد تعلو فوقها إلا لسنتيمترات قليلة، وهو ما سمح لـ(حنان) بأن تعدو وسط حديقتها لعدة أمتار، قبل أن تتوقف، وتلتفت إلى الخلف وتهتف كأنما تذكرت فجأة:

- يا إلهي! (يوسف)!

واستدارتْ لتندفع عائدة إلى الڤيلّا، لكنها فوجئت بـ(انچي) تندفع خارجة منها لتصطدم بها، وتسقط معها أرضًا..

وقبل أن تحاول (حنان) النهوض أو تستوعب ما حدث، وجدَتْ (انچي) تعاجلها بضربة بجسم صلب على رأسها، وهي تصيح ساخطة:

- اذهبي إلى الجحيم أيتها اللعينة!

وكانت الضربة قاسية بالفعل.. قاسية جدًا..

قاسية لدرجة أنها أبقتْ (حنان) حيث هي على الأرض، والدوار يكتنف رأسها، فلا تكاد تميّز إلا أن غريمتها قد اندفعتْ تتجاوزها للهرب..

وفي ألم رفعَتْ (حنان) يدها، تتحسّس موضع الضَّربة، لتلمس يدها سائلًا دافئًا، بدا أمام عينيها الغائمتين يشبه الدم..

وخُيّل إليها أنها تسمع صوت صرخات قادمة من داخل مبنى الڤيلّا..

وخُيّل إليها أيضًا أنها تسمع صيحة رهيبة، ارتعشتْ لها الأضواء -التي تراها باهتة- بقوة..

ومدّت (حنان) ذراعها إلى الأمام، وهي تقول في ضعف:

- (يوسف)، اهرب!

حاولتْ النهوض، لكنها شعرت بضعف شديد، جعل الأرض تميد بها، فأضافتْ في ضعف ساخط مرير:

- لا، ليس الآن.

لكنها بالفعل كانت قد استنفدتْ قوّاها كلها..

وسقطت (حنان)..

سقطت فاقدة الوعي أخيرًا وسط حديقة الڤيلّا المهجورة.

****

لهثتْ (ولاء) بقوة وهي تستند بيديها على مقدمة سيارة (مدحت) الكبيرة، وبدا أنها مُرهَقة للغاية، لكن الأخير أسرع يقول لها، وهو يدور حول السيارة التي بلغها معها في نفس اللحظة:

- ماذا تنتظرين؟ هيا، لقد أفلتنا بمعجزة.

وأخرج من جيبه بيده غير النظيفة -من أثر المياه الموحلة- مفتاح سيارته، الذي أسرع يعالج به قفل الباب الأيسر ليفتحه، ثم يرتمي بداخل السيارة، و(ولاء) تتحرك بسرعة لتحذو حذوه.

وفي توتر أغلقتْ الباب، وأدارت رأسها إلى ناحية الڤيلّا وهي تسمعه يدير المحرك، قائلة:

- هيا يا (مدحت)، أسرع.. لا تريد أن يدركنا ذلك الشيء.

هدر المحرك في انتظام مع آخر حرف في عبارتها، فأسرع (مدحت) يقول وهو يتحرك بالسيارة دون إبطاء:

- حالًا.. اربطي حزام المقعد.

وانطلق بالسيارة بسرعة كبيرة مبتعدًا عن المكان..

كانت المنطقة ساكنة تمامًا في ذلك الوقت من الليل، ولا يشق السكون والظلام سوى صوت سيارتهما المنطلقة وأضوائها العالية، والسيارة تنهب الأرض نهبًا كأنما تشاركهما بدورها رغبتهما في الفرار.

وبقوة، تنهدت (ولاء) وهي تسند رأسها على مسند الرأس بمقعدها قائلة:

- يا إلهي! لوهلة ظننتنا لن ننجو أبدًا!

وافقها بإيماءة من رأسه وهو يقول:

- وأنا كذلك.. لولا أن لاحظنا تلك النافذة القريبة، واستغللنا الموقف لنهرب، ربما لم يكن ليختلف مصيرنا عن كل مَن سبقونا.

مع قوله ابتعدت رأسها عن المسند، لتساله في توتر:

- أتظن أن أحدًا لم يبقَ سواتا ممن بالداخل؟

أجاب باهتمام محاولًا التركيز على الطريق غير المستوي:

- أعتقد أن إجابة كهذه من المستحيل أن نعرفها الآن.. فقط دعينا نركّز حاليًا على شيء واحد.. يجب أن نبتعد عن تلك الفيلّا قدر الإمكان.

كان يسيطر على المقود ببراعة، وينطلق محاولًا الوصول إلى آخر منطقة الفيلّات، ومنها إلى الطريق الرئيسي، لذا فقد أثار دهشة (ولاء) أن وجدت السيارة تتوقف فجأة بعنف واضطراب شديدين، على نحو اندفع معه جسدها إلى الأمام بفعل القصور الذاتي، ولم يحمها من أية عواقب عنيفة سوى حزام الأمان بالمقعد، فهتفت في دهشة:

- لماذا توقفت؟!

لكن (مدحت) بدا شديد العصبية والتوتر، وهو يقول ضاغطًا بدّالات الأقدام أسفل قدميه:

- لم أفعل! لم أكُن لأفعل بهذه الطريقة العنيفة! ولا أفهم ما الذي يحدث بالضبط.. لقد توقفت السيارة بعنف كأنما هناك من جذب فرامله فجأة.. لقد كادت تنقلب بنا!

اتسعتْ عيناها في ذعر وهي تقول:

- ماذا تعني؟!

راح يحرّك غيار السرعة ويتأكّد من فرامل اليد بلا جدوى، وهدر المحرك في قوة مع ضغطه على بدّال الوقود، لكن السيارة لم تتحرك قيد أنملة.

- دعينا نغادر السيارة.

هكذا صاح بها (مدحت)، فهتفت في دهشة مستنكرة:

- ماذا؟!

لكن قبل أن يتخذ أي منهما رد فعل، صدر ذلك الصوت الذي جعلهما يلتفتان إليه ثم تتسع أعينهما بمنتهى الرعب..

كانت شروخ صغيرة لكن قوية تسري في زجاج الواجهة الأمامية للسيارة بصوت مزعج، كان هناك مَن يستعمل أداة لحفر الزجاج بمنتهى الفظاظة ليكتب بالعربية في سرعة تلك الجملة التي جعلتْ الدماء تتجمّد في عروقهما..

"مصيركم الموت.. كلكم تستحقون الموت"..

وفي ارتباك وهلع شديدين، أسرع (مدحت) يحل حزام الأمان بمقعده هاتفًا:

- فلنغادر السيارة حالًا!

وهتفت (ولاء) وهي تحل حزام مقعدها بدورها:

- يا إلهي! خِلت أننا نجونا، لكننا لم نفعل بعد!

لكنهما لم يكادا يحلّان حزامَيْ الأمان، حتَّى دبَّ نشاط عجيب في الحزامين، كأن لهما إرادة خاصة بهما، وتحركا ليلتف كل حزام منهما حول عنق صاحبه، كأنما يهدف إلى خنقه..

وشهقت (ولاء) في رعب..

واتسعت عينا (مدحت) في فزع..

وراقب كلاهما بمنتهى الهلع تلك المياه الدكناء التي راحت تتقاطر من شروخ الزجاج، كأنما تنبع من الشروخ نفسها، في حين بدا على بعد أمتار أمام سيارتهما المشهد الأكثر هولًا..

أرض الطريق التي انشقَّت عن عملاق مخيف، كأنه كان يسابق سيارتهما طوال الوقت أسفل الطريق نفسه، ليوقفها هنا والآن، ويخرج أمامها.

وفي استماتة، راح (مدحت) و(ولاء) يقاومان لانتزاع حزاميَ الأمان، اللذين أجبراهما على الالتصاق بمقعديهما في قوة، وهما يشاهدان العملاق المخيف الذي يتقدَّم من السيارة..

وحاول (مدحت) أن يتحرك بالسيارة.. ضغط بدال الوقود بها، وحاول الانطلاق بها في قوة ليصدمه، لكن بلا جدوى..

كل ما أسفرَتْ عنه محاولته هو هدير قوي لصوت المحرك كما في المرة السابقة، يدل على أن دورانه لم تعد له صلة بحركة العجلات..

وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة..

ففي اللحظة التالية، انقض العملاق على السيارة، كأنما استفزه صوت المحرك الهادر، أو كأنه يعلن غضبه من رغبتهما في الهرب من بين براثنه، ومال على السيارة ليحتضن جسمها المعدني بذراعيه اللذين استطالا إلى حَدّ غير معقول، ثم يرفعها عن الأرض تمامًا كأنما لا وزن لها..

وصدرَتْ قرقعة معدنية مخيفة وتهشَّم الزجاج في عنف، واحتقن وجهي (مدحت) و(ولاء) وقد أدركا أن العملاق يعتصرهما بداخل جسم السيارة..

حتَّى الموت.

****

في غمضة عين، وجدتْ (حنان) نفسها في ذلك النفق..

نفق صخري ضيِّق، خافِت الإضاءة، قليل الارتفاع، ليس إلى الحَدّ الذي يجبرها على أن تحني قامتها، لكنه لا يرتفع فوق رأسها بكثير أيضًا..

نفق صخري امتدَّ من أمامها ومن خلفها، قادمًا من حيث لا تدري وممتدًا حتَّى منتهى البصر..

وقبل أن تتساءل (حنان) عن كُنه تلك النفق وكيفية وصولها إليه، انتبهَتْ إلى صوت الخرير المنتظم، الذي جعلها تُمعِن النظر، فتدرك أن هناك مياهًا تسيل بانتظام على الجدارين اللذين يمثِّلان جانبي النفق، فتهبط على الأرض لتجري، حيث لا تستطيع بالضبط أن تحدِّد أين تذهب..

مياه دكناء كأنما تلوثها الأوحال.

وفي توتر شديد، تراجعتْ (حنان) منكمشة على نفسها، وقد أدركتْ على الفور طبيعة تلك المياه الدكناء، وما قد يستتبعها من ظهور لذلك الوحش المخيف و.....

"المياه نفسها لا تؤذي في شيء، ولا تعدو كونها وسيلة اتصال."

أجفلَتْ (حنان)، برغم أن العبارة السابقة دوّت بصدًى مُعتدِل في النفق، بصوت أنثوي بدا مألوفًا نوعًا، هادئ النبرات، جعلها تتلفت حول نفسها وهي تسأل، دون أن يتردَّد صوتها، كأنما الصدَى خاصية تتبع فقط صوت مخاطبتها:

- مَن؟ مَن أنتِ؟!

قالت صاحبة الصوت، بنفس النبرات الهادئة التي يردِّدها الصدَى:

- لا يهم أن تعرفي مَن أنا، المهم أن تثقي بما أقول.

واصلتْ (حنان) التلفُّت حول نفسها في حيرة وتوتر، وهي تقول في عصبية:

- مُحال! لن أثق بشيء لا أراه أيًا كان، اظهري لي نفسك، إذا كان ما تنوينه هو الخير حقًا.

- أنا لا أريد بكِ شرًا حتمًا.

- مجرد هراء بلا دليل واحد!

- لستِ هنا في عالم الأدلة يا فتاة، ولا تملكين إلَّا أن تصدِّقي ما أقول.

هذه المرة كان النبرات الهادئة للصوت قد اكتسبتْ رنّة حازمة، تدُلُّ على أن صاحبتها تعرف ما تفعله.

وترددت (حنان) لحظات، قبل أن تسأل في عصبية:

- ماذا تريدين مني بالضبط؟

- نجاتكِ.

هكذا أجابتها صاحبة الصوت في هدوء واقتضاب، لكن (حنان) هتفت في عصبية:

- وماذا يجعلني أثق بأن هذه هي نيتكِ الحقيقية؟!

صمتت صاحبة الصوت بعض الوقت، كأنما تحسم أمرًا ما، قبل أن تقول بنفس لهجتها الهادئة، التي بدا كأن الانفعال لا يعرف طريقه إليها:

- لقد التقينا من قبل على أية حال.

صاحت (حنان) في استنكار:

- ماذا؟! نحن تقابلنا؟ أين وكيف؟!

قالت صاحبة الصوت الهادئ:

- قلتُ التقينا، ولم أقل إننا تقابلنا.

سألت (حنان) في حنق:

- وما الفارق أيتها المتحذلقة؟

قالت صاحبة الصوت في لهجة حازمة لم يفارقها الهدوء:

- الفارق أنكِ لم تريني.. لقد فاجأتُكِ على حين غِرّة من وراء ظهركِ.

التقى حاجبا (حنان) بشدة، وصاحبة الصوت تردف قبل أن تلقي الأولى سؤالًا آخر:

- في القصر.

ومع كلمتها تذكرت (حنان) لماذا بدا لها صوت مخاطبتها مألوفًا؛ لقد سمعته من قبل..

تذكرت هذا وأدركته، قبل أن تقول صاحبة الصوت مضيفة:

- عندما ساعدتُك وحثثتُك على الهرب.

وصمتت لحظة، قبل أن تتابع:

- الآن ربما وجدت ذلك الدليل الذي كنت تنتظرينه لتصديقي.

- من أنت بالضبط؟!

برغم الحيرة في صوتها، لم تزايله العصبية، و(حنان) تلقي سؤالها على مخاطبتها الغامضة، فتجيب هذه الأخيرة:

- لا يهم من أكون، كما أخبرتُك من قبل.. المهم هو ما أريد أن أقول.. الان وقد أصبح لديكِ الدليل على حسن نيتي، تقدَّمي في النفق.

تحركت (حنان) لتتقدم في النفق ببطء وحذر، وعادت تتأمل جدرانه الصخرية على الإضاءة الخافتة مجهولة المصدر، وهي تسأل:

- ما هذا النفق بالضبط؟ وأين نحن؟

أجابتها صاحبة الصوت بهدوئها المعتاد:

- لا تكترثي للنفق كثيرًا، فهو لا يُعدُّ أكثر من وسيلة اتصال، كالمياه الدكناء نفسها، أو كالحلم مثلًا.

توقفت (حنان) مع كلماتها وكررت في دهشة وتوتر:

- الحلم؟!

لكن صاحبة الصوت تابعت، كأنما لم تُعِر تعليقها أي اهتمام:

- بالأحرى، الحلم كان أقرب للمصيدة منه إلى الاتصال.. لكنه في النهاية كان مزيجًا من الأمرين.

قالت (حنان) في حيرة:

- اتصال ومصيدة! أنا لا أفهم شيئًا.. هلَّا أوضحتِ ما تقولينه؟

قالت صاحبة الصوت:

- تلك التجربة التي سبق أن أجريتها من قبل.

تساءلت (حنان):

- تجربة الإسقاط النجمي؟

قالت صاحبة الصوت:

- دعينا نطلق عليها "تجربة الكهف"؛ بلا مسمَّيات معقَّدة.

سألت (حنان) وهي تعاود تقدُّمها في النفق من جديد:

- حسنًا، ماذا عنها؟

- لقد كانت تجربة اتصال.

قالت (حنان) في عصبية:

- لماذا لا تلقين بكل ما يجعبتك دفعة واحدة؟ أنا أكره أسلوب التقطير هذا.

صمتت صاحبة الصوت الهادئ هنيهة، قبل أن تقول دونما انفعال كالعادة:

- فليكن.. أنتِ واحدة من قلائل يتمتعون بما يعرف باسم الإدراك الفائق للحواس.. الإدراك الفائق للحواس هو قدرة أو مجموعة من القدرات تفوق المألوف لدى غالبية البشر، وبواسطتها يمكنكِ أن تشعري أو تتوقعي أو تحدسي أو تتصلي بشيء ما أو مكان ما.

ردّدت (حنان):

- الإدراك الفائق للحواس؟!

قالت صاحبة الصوت الهادئ:

- هذا صحيح.. لا بُدّ أنكِ قد سمعتِ عن مثل أولئك الأشخاص.. يستطيعون التنبؤ بما سيحدث أكثر ممن سواهم.. يستطيعون أن يروا لمحات من المستقبل.. يستطيعون استشعار الخطر.. أو يستطيعون حتّى التخاطر عن بعد. أنتِ تملكين نوعًا من الإدراك الفائق للحواس، كان سببًا في اتصالكِ بذلك القصر أثناء التجربة.

قالت (حنان):

- إذا سلّمتُ بصحة ما تقولين، فما هو ذلك القصر؟ وأين مكانه؟ ولماذا اتصلتُ به؟ أنا لا أذكر أنني رأيتُه في الماضي في أي مكان، ولا أظن أن قصرًا مثله شديد القِدم يمكن أن يتواجد في المستقبل.

قالت صاحبة الصوت الهادئ:

- ذلك القصر لم تريه من قبل حتمًا، لسبب بسيط هو أنه غير موجود في العالم الذي تعرفينه وتعيشين فيه.. إنه موجود في عالم آخر منذ أمد سحيق.. لا أحد يعلم تقريبًا مَن شيّده ولا متى فعل.. لكنه شديد القِدم ومنعزل للغاية.. ويكفي أن تعلمي أن العالم الذي يضمّه ليس فيه من شيء سواه.

تساءلت (حنان) في دهشة:

- ألا يوجد فيه سوى ذلك القصر فحسب؟!

- بالضبط.

هكذا أجابتها صاحبة الصوت الهادئ في حزم واقتضاب، فسألت (حنان):

- حسنًا، وما الذي جعلني أتصل به؟ كيف وصلتُ إلى ذلك العالم أصلًا؟

قالت صاحبة الصوت الهادئ:

- عن طريق شيئين.. أولهما صاحبتكم، وثانيهما الكهف.

عند هذا الحد، كانت (حنان) قد بلغتْ جزءًا من النفق، ظهر فيه واضحًا أن الأرض تنشق إلى هاوية سحيقة واسعة، ثم تعود لتظهر مرة أخرى على بعد عدّة أمتار، وفوقها بدا طيف باهت للغاية، شعرت (حنان) أنه يمثّل صاحبة الصوت الهادئ، التي قالت لها والطيف يرفع ذراعه طالبًا منها ألّا تتقدم أكثر:

- يمكنك التوقف عندك.

هزت (حنان) رأسها، وقالت:

- لا أفهم ما قلتِ.. أعني بخصوص الكهف وما حدث.

قالت صاحبة الصوت الهادئ، والطيف يتحرك بما يتوافق مع ما تقول:

- هل تذكرين ما فعلته صاحبتكم عندما بدأتم تجربة الاتصال؟ هل تذكرين ما قالته عن محاولة أن يرى كل منكم منزلًا قديمًا أو قصرًا مهجورًا؟

التقى حاجبا (حنان) في شدة وهي تستعيد ذلك المشهد، وقالت في خفوت:

- نعم، أتذكر ذلك.

قالت صاحبة الطيف:

- ما فعلته صاحبتكم هو عملية توجيه بسيطة للاتصال بمكان القصر، بعد أن كانت قد اختارتْ نقطة مثالية للاتصال بالقصر أصلًا، وهي الكهف.

كانت (حنان) مندهشة من كل ما تسمعه، وهي تهز رأسها في حيرة غير مصدِّقة، قبل أن تسأل:

- إذًا، فهي (إنچي) التي فعلتْ كل هذا؟

خُيِّل إليها أن الطيف يهز رأسه، وصاحبة الصوت الهادئ تقول:

- هذا صحيح.

قالت (حنان) في صوت بدا فيه التجسيد الكامل للحيرة التي تعتمل بداخلها، وهي تسأل:

- لكن لماذا؟ لماذا ذلك القصر بالذات؟

- لأنه يُعَد منطقة اتصال محظورة جدًا و...

في هذه المرة، شاب الصوت الهادئ بعض التقطيع الذي حجب جزءًا من الكلمات، كأنما تسمعه (حنان) عبر جهاز اتصال لا سلكي في نطاق سيئ الإشارة، وإذا بعينيها تجدان المشهد يهتز من حولها، كأنها صورة تستقبلها تعاني من سوء الإرسال، فسألت في دهشة متوترة:

- ما الذي يحدث بالضبط؟!

قالت صاحبة الصوت بنفس صوتها الهادئ، الذي أصبح شاقًّا على الفهم وطيفها يكاد يتلاشى:

- الاتصال... يضعف...

حاولت (حنان) أن تمد ذراعيها إلى الأمام هاتفة بها:

- انتظري، لا ترحلي الآن.. يجب أن تفسري لي أكثر.

لكن ما قالته صاحبة الصوت كان مستحيل الفهم هذه المرة...

لقد استحال صوتها إلى ما يشبه شوشرة صوتية، اختلطتْ بتشويش فظيع في المرئيات أمام (حنان)، التي هتفتْ لمرة أخيرة:

- انتظري!

إلا أن الموجودات من حولها انصهرت فجأة لتصبح سوادًا تامًا، خُيِّل إليها أنه يهاجمها في قوة...

وأفاقت (حنان).

أفاقت لتجد نفسها ملقاة كما كانت، في حديقة الڤيلا المهجورة، يحيط بها ظلام الليل وسكون تام غلَّفا المكان بأكمله.

وكان أول ما شعرت به هو الألم في رأسها.. ألم في جانب جبهتها، جعلها تستعيد على الفور تلك اللحظة التي ضربتها فيها (إنجي) بذلك الشيء الصلب، الذي من الواضح أنه أصابها بجرح دامٍ..

نعم، ذلك الشعور الذي تحسّه، كأن شيئًا لزجًا على جلد رأسها وجانب وجهها، هو لدماء جافة بالتأكيد، وأثر ذلك اللون الأحمر -الذي تراه على الضوء القادم من داخل الفيلّا- على باطن كفها وأصابعها يؤكّد ذلك.

كانت تشعر بالإنهاك والتعب، وودّت لو استسلمتْ لنداء جسدها الذي يصرخ طالبًا الراحة، ليذكرها بأنها لم تنم سوى لوقت قصير، استيقظت بعده قُبيل الفجر، ولم تعُد إلى النوم لوقت يكفي طوال يوم كامل وحتّى هذه اللحظة..

لكنها تذكّرتْ أمرًا آخر أيضًا.

ومع تذكرها إياه، غمغمت (حنان) في ضعف، وهي تتحامل على نفسها أكثر لتنهض:

- (يوسف)!

بذلَتْ جهدًا كبيرًا، لتقف على قدميها، ولم تكد تفعل حتّى تحركت بأسرع ما يمكنها في مشية مترنحة، نحو باب الفيلّا لتدخل إليها من جديد..

وعند مدخل الباب، توقفت (حنان) تدير عينيها بتوتر في الفوضى العارمة التي اجتاحتْ المكان..

قطع الأثاث المحطَّمة.. أشلاء الجثث الممزَّقة التي اختلطتْ ببقع الدم وتناثرت بين وفوق وأسفل بعض قطع الأثاث نفسها وعلى الجدران..

هناك نافذة مفتوحة يدخل منها هواء الشتاء البارد بصفير بسيط، لكنه بدا لها يشترك مع كل ما تراه ليضع اللمسات الأخيرة للوحة الموت المرعبة..

وبرغم كل هذا، كررت (حنان) نداءها:

- (يوسف)!

في هذه اللحظة، سمعت صوت أنين، جعل جسدها ينتفض، قبل أن تتسع عيناها في انزعاج، وهي تقول مندفعة إلى داخل الفيلّا:

- (يوسف)! أين أنت؟ ماذا أصابك؟

هالها أن وجدَتْه مُلقًى على وجهه أرضًا أسفل كومة من قطع الأثاث، وقد شوّهتْ الجروح الدامية معالم وجهه بشكل كبير، فأسرعَتْ تنحني إلى جواره في وضع القرفصاء، وهي تردد دامعة:

- (يوسف)!

رفع عينيه إليها في ضعف ومد ذراعه في صعوبة ليمسك كفها بيده، فتطلّعت إليه لحظات، قبل أن تقول:

- حسنًا.. انتظر يا (يوسف).. انتظر.. سأزيح عنك قطع الأثاث هذه.

لكنه تشبّث بكفها بيده ليمنعها، مما جعلها تقول:

- دعني أحاول رفعها عنك يا (يوسف).. دعني أحاول إنقاذك.

بذل (يوسف) جهدًا خرافيًا، ليقول في ضعف بصوت متحشرج:

- لا داعي.

قالت (حنان) في عصبية بصوت باكٍ:

- ما هذه الحماقة؟ دعني أساعدك!

ابتسم (يوسف) ابتسامة ضعيفة، وهو يقول في صعوبة:

- لن.. تجدي الوقت.. لذلك..... فقط...

وصمت لحظات وأنفاسه لا تسعفه لأن يقول كل ما يريد مرة واحدة، ثم أضاف في ضعف أكثر:

- فقط.. يكفيني.. أنكِ.... عدتِ الآن.... من أجلي.

قالت (حنان) ودموعها تسيل من عينيها:

- لم يكن ينبغي أن أتركك وحدك أبدًا في مثل هذا الموقف.. سامحني لأنني جريتُ وحدي إلى الخارج.. سامحني لأن...

لكن (يوسف) ضغط كفها في ضعف، كأنما يمنعها من مواصلة الكلام، فالتقطت حقيبتها تفتحها في سرعة، وأخرجت هاتفها المحمول منها لتجري اتصالًا..

وعاد (يوسف) يضغط كفّها مجددًا، وهو يقول:

- لا تفعلي... يا (حنان)... أرجوك!

قالت من وسط بكائها:

- سأطلب الإسعاف.

هز رأسه نفيًا في صعوبة شديدة، وتحامل على نفسه ليقول:

- لا... لا تفعلي... المكان.. مليء بالجثث... لم ينجُ أحد... ولا حتى أنا... استغلّي.. الفرصة... للهرب.. لا... أريد.... أن يصيبكِ.... أذى.

كان صوته يزداد ضعفًا وكلماته تتقطّع لترتجف حروفها في ضعف، فهتفت:

- مستحيل أن أتركك هكذا!

رأته يحاول الابتسام، فيفشل في ألم، وسمعته يقول بصوته المتقطّع المرتجف الأحرف:

- وكان... من... المستحيل... ألّا... أحبكِ... أنا.... أيضًا.

سالت دموعها أكثر مع كلماته، وهي تسمعه يضيف في وهن:

- هل... أحببتني.... كما.... أحببتُكِ؟

كانت تعلم أنها لم تمهله الفرصة قط من قبل ليفصح لها عن حبه الذي لم تبادله إياه حقًا، برغم أنها شعرتْ به في أكثر من موقف، إلّا أنها هزّتْ رأسها بالإيجاب، قائلة من وسط دموعها:

- أحببتُك.

شعرتْ بيده القابضة على كفّها تستكين، وهو يقول في راحة ظهرتْ بوضوح برغم وهن صوته:

- عظيم.... اهربي إذًا.

ويبدو أن كل ما قاله جعله يبذل جهدًا كبيرًا، فقد أنهى عبارته بسعال ضعيف، تناثرت معه قطرات الدم من فيه على الأرض، فصحتْ (حنان) كفها من يده، وهي تقول:

- سأطلب الإسعاف.

لكن عينيه تركزتا على عينيها... ورأتهما (حنان) تجمدان في ذلك الوضع، ثم يخبو فيهما بريق الحياة، فصرختْ في لوعة:

- لا يا (يوسف)... لا تتركني الآن!

وهزّته في قوة، وهي تضيف صارخة:

- لا.. ليس بهذه الطريقة.. لا تتركني وحدي!

لكن روحه كانت قد فارقته بالفعل..

وفي يأس وألم استكانتْ (حنان) إلى جواره جالسة على ركبتيها فوق الأرض، وبكاؤها يزداد حدّة مكرّرة في مرارة:

- لا تتركني وحدي!

وكانت أقسى لحظة عاشتها في حياتها كلها.. لحظة امتلأتْ بالحزن واليأس والألم والدم...

وأحاطتْ بها فيها كل مظاهر الموت، وبروده وقسوته ووحشته.

****

9- مواجَهة

بعد أن أنهَتْ حمَّامها، وقفَتْ (حنان) وهي تلفّ رأسها بمنشفة بيضاء، أمام المرآة تتأمل ذلك الجزء من جبهتها، الذي يحمل أثر الجرح الناتج عن ضربة (إنجي) لها وهي تحاول الفرار..

كانت قد اعتنَتْ بغسله بعد أن غادرَتْ منطقة القيلًا، قبل أن تعمد إلى استئجار غرفة بأحد الفنادق..

وأول شيء فعلَتْه عندما اختلَتْ بنفسها في الغرفة: كان الاستحمام لإزالة آثار كل ما تعرَّضَتْ له.

وخلعَتْ (حنان) المنشفة عن رأسها، لتتدلى خصلات شعرها الأسود الناعم، وتغطّي جزءًا من الجرح دون جزء، فألقَتْ (حنان) نظرة عامة على وجهها من مختلف الزوايا الممكنة، قبل أن تغادر الحمَّام الصغير المُلحَق بغرفتها إلى الغرفة نفسها..

كانت الساعة قد جاوزَتْ السابعة صباحًا.. لكن برغم الإنهاك الذي تشعر به (حنان)، فقد ذهبَتْ لتجلس على طرف فراشها، وراحَتْ تفكر بدلًا من أن تخلد للنوم..

تطلَّعت إلى المنبّه الصغير، وغمغمت:

- ما من وقت لإضاعته.. ما من وقت لإضاعته الآن.

ثم نهضَتْ من فراشها إلى خزانة الملابس بغرفتها تفتحها، وتطلَّعت لحظة إلى كيس كبير من البلاستيك الأسود بداخلها، جذبته منها، وأغلقَتْ الخزانة في حزم.

****

جرَّت (إنجي) حقيبة متوسِّطة من حقائب الملابس ذات العجلات على أرضية ممر بالطابق العلوي من إحدى القيلّات، قبل أن تقف وتنادي في عصبية:

- عم (ناصر)!

انقلبَتْ الحقيبة على جانبها مع ندائها العصبي، الذي جعلها تجذبها بصورة خاطئة، فانحنَتْ تعدلها وتقيمها ثانية، قبل أن تكرّر نداءها في عصبية أشد:

- عم (ناصر)! أين أنتَ؟!

ظهر أحد الخدم العاملين بالقيلّا، وصعد إليها الدَّرج مسرعًا وهو يقول:

- أنا هنا يا آنسة (إنجي).

وجدها واقفة في الممر الطويل بين الحجرات، وقد ارتدَتْ ملابس الخروج وأتمَّت زينتها، ولم تكد تراه حتَّى قالت في عصبية:

- لماذا لا تجيب فورًا؟

قال الرجل بلهجة اعتذار:

- كنت في المطبخ ولم....

لكنها قاطعته قائلة:

- فليكن.

وربتت على الحقيبة قائلة:

- احمل هذه، وضعها في الحقيبة الخلفية لسيارتي.

- هل أنتِ مسافرة؟!

سألها في دهشة، فصاحت به في شراسة:

- وما شأنك أنتَ؟!

أسرع الرجل يقول متلعثمًا:

- معذرة يا آنسة (إنچي)، قد يتصل السيد (سالم) والدك ويسأل عنك، مثلما يفعل دائمًا، وقتها لن يسرّه أن أجيب بأنني لا أدري... أنتِ تعرفينه.

صمتَتْ لحظات وهي تنظر إليه، قبل أن تزفر في ضيق وتقول:

- حسنًا، نعم.. سأسافر لبعض الوقت.. أبلغه إذا اتصل أن يتصل بي مباشرةً.

- كما تأمرين يا آنسة (إنچي).

وأسرع يحمل الحقيبة ليهبط بها، في حين زفرتْ هي مرة أخرى وهي تغمغم:

- كلهم سافروا إلى (أمريكا)، وبرغم هذا لا ينسون -حتَّى في غيابهم- فرض الوصاية عليّ.. يا لها من حياة مملة!

اتجهتْ إلى غرفتها الخاصة، وألقتْ نظرة على مظهرها في المرآة، وهي تساوي بيدها شعرها الأشقر، ثم مدَّت يدها لتجذب حقيبة يدها الأنيقة غالية الثمن، لتعلِّقها على كتفها، قبل أن تغادر الغرفة وتهبط إلى أسفل في خطوات هادئة، لتزى (ناصر) وقد عاد من الخارج، ليسألها:

- ألن تتناولي الإفطار يا آنسة (إنچي)؟

قالت في هدوء:

- أنا لا أستيقظ في مثل هذا الوقت المبكر عادةً يا عم (ناصر)، وإذا فعلتُ لا أجد بي شهية لتناول الطعام.

قال الرجل:

- وهذا ما يجعلني أتساءل عن مكان وجهتكِ، والساعة لا تزال الثامنة صباحًا!

توقفتْ لتقول في ضجر:

- عم (ناصر)، أرجو ألَّا تحاول دسّ أنفكَ باستمرار في شئون غيرك!

غمغم الرجل:

- أعتذر يا آنسة (إنچي)، هل تطلبين شيئًا آخر؟

أشارتْ له بالانصراف بطريقة تخلو من اللياقة، وقالت:

- لا أريد شيئًا، هيا انصرف.

وأكملتْ طريقها إلى خارج الڤيلَّا، لتجد سيارتها المكشوفة الحديثة الأنيقة ذات المقعدين من طراز (بي إم دبليو) تنتظرها، حيث أوقفتها أمام مبنى الڤيلَّا مباشرةً.

تحركت (إنچي) لتدور حول سيارتها، وتفتح بابها لتجلس خلف عجلة قيادتها، ثم تتحرك بالسيارة في نعومة وسلاسة مغادرة الڤيلَّا.

لكن (إنچي) لم تكد تخرج بسيارتها من البوابة الكبيرة، حتَّى التقى حاجباها في عصبية وتوتر، وهي تشاهد تلك السيارة التي تحركت وراءها دون أي محاولة للتخفي..

سيارة (حنان)..

وفي توتر عصبي غمغمت (إنچي):

- تلك اللعينة لم تمت بعد!

أمّا في سيارتها، فقد شاهدتْ (حنان) (إنچي) تزيد من سرعتها، محاولة الفرار منها، لكنها ضغطتْ بدّال الوقود بدورها، وهي تقول في سخرية:

- دعينا لا نبدأ المُطاردة هنا، من الحماقة أن نلفت انتباه الآخرين إلينا، إنها مسألة خاصة. دعينا نصفيها بما يليق بها من خصوصية، وبعيدًا عن أعين الفضوليين.

كان من الواضح أن (إنچي) لا تجد المتّسع الكافي، للتحرك بسيارتها بسرعة كبيرة داخل المدينة، برغم الوقت المبكر، فابتسمتْ (حنان) في سخرية، وهي تقول:

- ألم أقُل لكِ؟

وفي ضيق شديد، ضربتْ (إنچي) مقوَد سيارتها، وهي تضطر للتخفيف من سرعتها، بسبب سيارتين أمامها، أطلّ من إحداهما رجل يسأل راكب الأخرى عن شيء ما، مما جعلها تطلق نفيرها في قوة لتستعجلهما، لكنهما لم يباليا بها.

وألقتْ (إنچي) نظرة على مرآة سيارتها الداخلية، لتجد أن (حنان) وراءها لا تحاول أن تبلغها أو تجاورها، مكتفية بالحفاظ على مسافة ما بينهما، فزفرت في سخط قائلة:

- تبًا!

وعادت تضغط نفير سيارتها في إلحاح، مغمغمة في عصبية:

- هيا، عليكما اللعنة!

لكن السيارتين أفسحتا لسيارتها المجال في بطء مثير للأعصاب، فلم تكد ترى المجال واسعًا للانطلاق، حتّى أطلقت إطارات سيارتها صريرًا وهي تنطلق بها لتتجاوزهما، وتتبعها سيارة (حنان) كظلّها، والأخيرة تقول:

- مهما فعلتِ.. لن تجدي الفرصة أبدًا للهرب مني هنا، فبرغم كل شيء أنا وأنتِ نعرف جيدًا أنكِ أقل براعة مني في قيادة السيارات.

راحَتْ تراقب انطلاقة (إنچي) العصبية، التي ظهرت بوضوح في الانحرافات الحادة ومصباحي الفرامل اللذين يُضاءان بشكل يتكرّر كثيرًا بين كل لحظة وأخرى، واكتفتْ بابتسامتها الساخرة الواثقة، وهي تتبعها بطريقة أكثر هدوءًا، تكاد تحافظ بها على المسافة بينهما، حتّى رأتْ (إنچي) تجتاز منطقة العمران، وتتجه إلى الطريق السريع، حيث يمكنها أن تطلق لسرعة سيارتها العنان، فتلاشتْ ابتسامتها وهي تقول بلهجة لم تفقد هدوءها، لكنها اكتستْ برنّة حازمة:

- الآن تتخذ اللعبة سمتَيْ الجدّية والخطورة.

وجاء دور (إنچي) ليخفتَ توترها بعض الشيء، وهي تتطلّع في مرآة سيارتها إلى سيارة (حنان) خلفها، وتبتسم قائلة:

- الآن أقول إنكِ قد أضعتِ فرصتكِ أيتها الحمقاء، فمهما بلغتْ براعتكِ، لا يمكن أن تلحق سيارتكِ الحقيرة بسيارتي الحديثة أبدًا.

وكانت (حنان) تعي هذه الحقيقة جيدًا..

فسيارتها متوسطة الإمكانيات، لم تكن أبدًا لتضاهي إمكانيات سيارة (إنچي) ولا سرعة انطلاقها في الطرق السريعة، مثل هذا الطريق الخالي الذي بلغتاه الآن.

ولذا فقد تحركت يدها لتعمل بسرعة، وهي تضغط دواسة الوقود في سيارتها بأقصى قوتها، قائلة:

- دعينا نختبر البراعة الفعلية.. لصاحبتيّ السيارتين.

اقتربتْ بمقدمة سيارتها من مؤخرة سيارة (إنجي) لحظات، بدت فيها أنها عاجزة عن بلوغها، وشاهدتْ (إنجي) هذا في مرآتها الجانبية، فاتسعتْ ابتسامتها في ثقة، وهي تقول:

- الوداع أيتها العنيدة.

لكن (حنان) أتتْ فجأة على أغرب فعل توقَّعته (إنجي) على الإطلاق..

لقد رفعتْ ذراعها لتلقي بشيء نحو سيارتها، قبل أن تبتعد بها (إنجي) عنها..

شيء يحترق، لمحت (إنجي) فيه النار بوضوح ويتصاعد منه الدخان!

وكانت الرمية موفَّقة؛ إذ دخل ذلك الشيء سيارتها، واستقر بين المقعدين بها في اللحظة التي ابتعدتْ فيها سيارتها كثيرًا عن سيارة (حنان).. لكنها هتفت في انزعاج، وهي تضغط فرامل سيارتها لتخفِّف من سرعتها في ارتباك وتلقائية:

- تبًا! ما ذلك الشيء بحق الجحيم؟!

حسبما رأتْ (إنجي)، كان ما ألقته (حنان) كُرة مشعَّرة تحترق من كُرات المضرب، تدحرجت مع الفرملة لتسقط عند قدميها، فضغطتْ دوَّاسة الفرامل أكثر، وهي تتجه إلى اليمين في ذعر، وتضرب بقدميها الكرة المشتعلة في قوة، لتطفئها بسرعة في عصبية وتوتر شديدين..

وعلى الفور، لحقتْ (حنان) بها، وتجاوزتْ سيارتها، لتتوقف بسيارتها هي أمامها، وبشكل يمنعها من الانطلاق بشكل مباشر، قبل أن تفتح بابها لتغادرها..

وقبل أن تحاول (إنجي) التحرُّك بالسيارة مرة أخرى، أو اتخاذ أي رد فعل مناسب، وجدتْ (حنان) تصوِّب إليها مسدسًا قائلة في سخرية:

- أهنئكِ.. لقد أديتِ دوركِ ببراعة تامة حتى الآن، وأنا لا أطمع في أكثر من هذا.

تطلَّعت (إنجي) إلى مسدسها في توتر وخوف، ونقلت بصرها إلى (حنان) نفسها، التي بدت لها غريبة في زي تمويهي يشبه أزياء الميدان لرجال الجيش، وقد ارتدتْ حذاءً أسود طويل الرقبة، ولفَّت حول جبهتها وبين خصلات شعرها الناعمة شريطًا أبيض اللون، دارتْ به الظاهر من جرح جبهتها، وبدا أن المفاجأة قد ألجمتْ لسانها، مما دفع (حنان) لأن تبتسم في سخرية وتقول:

- ماذا؟ هل فوجئتِ لكوني مستعدة هكذا؟

قالت (إنجي) في توتر عصبي:

- مستعدة لأي شيء بالضبط؟ لقتلي؟

هزَّت (حنان) كتفيها بلا اكتراث، وقالت:

- ربما.

وتحركت في هدوء لتقترب منها، مضيفة:

- لن أتردَّد في إطلاقه عند أول بادرة للشك.

قالت (إنجي) في توتر وهي تنظر إلى المسدس:

- (حنان).. لم أعهدكِ يومًا ميَّالة للعنف.. كُفِّي عن هذا السخف الآن، ودعينا نتعامل بهدوء وعقلانية.. قتلي لن يفيدكِ بشيء.

سألت (حنان) في تهكُّم، وهي ترفع حاجبيها في دهشة مصطنعة:

- ما هذا؟ ما كل هذه الرقّة المفاجأة؟ هل أرهبك المسدس حقًا؟!

ورفعتْ المسدس أكثر لتتأمله مضيفة:

- مرآه يثير التوتر بالفعل، لولا عيب واحد...

وبترت عبارتها، لتنهال بكعب المسدس فجأة في ضربة قاسية على رأس (إنچي)، متابعة في مقت:

- أنه لا يصلح سوى للهو الأطفال.

اتسعتْ عينا (إنچي) من المفاجأة والضربة القاسية، ووَدّت أن تأتي برد فعل تفتح فيه باب السيارة وتدفع به غريمتها بعيدًا، لكن (حنان) تحركت بسرعة أكبر، لتركل الباب ركلة دافعة للأمام، فتغلقه ثانية، وتنهال بضربة أكثر قسوة على رأس (إنچي) بكعب المسدس، وهي تردف:

- هيا، امنحيني بقبانك المبرّر الكافي لتحطيم رأسك تمامًا.

وشعرتْ (إنچي) برأسها يدور في قوة، فهتفتْ في حنق:

- اللعنة!

حاولتْ الاحتفاظ بوعيها، لكنها رأت (حنان) تتحرك في سرعة، لتخرج شيئًا من جيب سترتها، وهي تقول:

- الآن، يجب ضمان أن تبقي فتاة مطيعة في هذه المرحلة.

شعرت بها تفتح الباب المجاور لها، وتقيّد يديها بحبل في سرعة، ووعيها ينسحب وينسحب..

ثم دفعتها (حنان) إلى المقعد المجاور، والقت بنفسها وراء مقود سيارتها المكشوفة، قائلة في سخرية:

- لن أفتقد سيارتي كثيرًا هنا.

وتحركت بالسيارة لتنطلق بها في سرعة، حيث ابتلعها الطريق تمامًا.

****

كان أول ما شعرت به (إنچي) وهي تستعيد وعيها هو الألم.. ألم بأماكن متفرّقة من جسدها..

ورويدًا رويدًا، بدأت تستوعب وضعها والموجودات من حولها في صمت..

كانت مقيّدة اليدين والقدمين بحبال قوية على نحو مؤلم، وكانت يداها وراء ظهرها، وقد استقرّت في وضع الجلوس فوق أرض رملية، امتدّتْ أمامها وحولها حتّى مدى البصر، وقد استند ظهرها نفسه إلى شيء صلب جعله قائمًا رأسيًا، لم تلبث أن أدركتْ أنه ليس إلا جسم سيارتها نفسها.

ومع إدراكها هذا، أتاها صوت (حنان) تقول:

- إذًا فقد أفقتِ.

لم ترها في مجال بصرها، لكنها سرعان ما وجدتها تطلّ بوجهها فجأة من السيارة فوقها، ثم تقفز أمامها فوق الرمال، لتقول:

- رأيتُك تستعيدين وعيك في مرآة السيارة الجانبية، التي قمتُ بضبطها خصيصًا، لأتمكّن من رؤيتك إذ جلستُ أنتظر في سيارتك المريحة.

وهزّت كتفيها وهي تتابع:

- وأنتِ لم تبقي غائبة عن الوعي كثيرًا، لذا لم أشعر بالملل وأنا أنتظرك.

لم يكن فم (إنچي) مكمّمًا، لذا تساءلتْ في تعب:

- أين نحن بالضبط؟

ابتسمت (حنان) وهي تشير بذراعيها في حركة مسرحية، وقالت:

- كما ترين، فوق الرمال وتحت السماء.. في قلب الصحراء.. مكان رائع يصلُح لأن أختفي بكِ فيه بسرعة، ولاستجوابكِ بلا مشاكل ودون لفت الانتباه.

مع قولها تذكرت (إنچي) ما فعلته (حنان) بها، والتقى حاجباها في غضب وهي تقول في استنكار:

- تستجوبينني؟ مَن تظنين نفسكِ؟!

رفعتْ (حنان) حاجبيها في دهشة مصطنعة وهي تقول في سخرية:

- مَن أظن نفسي؟ لا أظن نفسي شيئًا.. أنا مجرد رقم زائد في قائمة الضحايا، الذين تسببتِ في مقتلهم بتجربتكِ اللعينة فحسب.. رقم يزيد العدد الكلي إلى أربع عشرة ضحية بدلًا من ثلاث عشرة فقط.. فتاة بلهاء مسكينة، أتّى لها أن تتساءل، أشرّ أريد بها أم هو فقط حظها العاثر، الذي جعلها توافق على خوض مثل تلك المغامرة السخيفة! مَن أنا لأسأل على أية حال؟ بأي صفة أفعل؟ فيمَ أتميّز عن كل مَن سبقوني؟ كلنا سنموت عندما يحين أجلنا على أية حال، أليس كذلك؟

قالت (إنچي) في عصبية:

- اسمعي يا فتاة.. إذا كنتِ تظنين أن أساليبكِ الحمقاء هذه ستجدي نفعًا أو ستلحق بي ضررًا، فأنتِ واهمة.

مالت (حنان) نحوها، لتقول في صرامة مفاجئة:

- بل اسمعي أنتِ.. إذا كنتِ تظنين أنني سأدّخر وسعًا، في انتزاع ومعرفة كل ما أحتاج إليه من أجوبة شافية منكِ، فأنتِ الواهمة.. أنا ميتة تمشي على قدمين، مهدّدة بفقدان حياتي دون أن أفهم حتّى ما الذنب الذي جنيتُه، وعلى عكس كل مَن سبقوني؛ مستعدة بالفعل لتمزيقكِ إربًا وإحراق أشلائكِ إن لم أحصل على تفسير لكل ما يحدث.. وصدّقيني لن تحبي أن تجربيني في ذلك.

بعد عبارتها، ران عليهما صمت تام، وكل منهما تتطلّع إلى عينيّ الأخرى مباشرةً في تحدٍ وإمعان، كأنهما نمرتان غاضبتان، ترغب كل منهما في تفحُّص غريمتها، قبل الاشتباك المميت معها..

وطال الصمت لما يقرب من دقيقة كاملة، قبل أن تسأل (إنچي):

- ولماذا تخشين الموت؟ لقد استنثاكِ.

سألتها (حنان) في عصبية:

- مَن تقصدين؟

أجابت (إنچي) على الفور:

- الوحش.. ذلك الشيء الذي هاجمنا جميعًا، لقد حماكِ وقتل (أشرف) من أجل ذلك.

قالت (حنان) في صرامة:

- هل ستعودين إلى لعبة الاتهامات القذرة هذه من جديد؟ الجميع ماتوا، لم تعد لعبتكِ مجدية.

قالت (إنچي) في هدوء:

- ولماذا تسمين هذا تلاعبًا؟ أليس ذلك هو ما حدث أمامنا جميعًا؟

صمتت (حنان) لحظات، اعتدلتْ فيها في وقفتها، قبل أن تقول:

- لم أتلقَّ بعد إجابة على أسئلتي.. لماذا حدث كل ذلك؟ وكيف؟

سألتها (إنچي):

- ولماذا تفترضين أنني أعرف؟

قالت (حنان) في عصبية:

- ماذا تقصدين؟ أنتِ تعرفين بالطبع.. مَن سواكِ اقترح إجراء التجربة؟ مَن سواكِ قام بتوجيهنا إلى التفكير في قصر أو منزل قديم عند التأمل؟

التقى حاجبا (إنچي) في استغراب، وهي تقول في دهشة:

- من أخبركِ بكل هذا؟!

عقدت (حنان) ساعديها على صدرها، وهي تقول في تهكُّم يحمل رائحة التحدي:

- عصفور صغير أخبرني.

تطلَّعت إليها (إنچي) في توتر، لكنها تابعت:

- لا تشغلي عقلكِ القاصر بمثل هذه التفاهات.. لن يهمكِ كثيرًا كيف عرفتُ، المهم أنني عرفتُ، فلا داعي للمراوغة.. هذا لصالحكِ.

وفي هذه المرة بقيتْ (إنچي) صامتة، وهي تتطلَّع إلى (حنان) بنظرة، شعرَتْ معها هذه الأخيرة أنها تحاول بها سَبْر أغوارها، لمعرفة ما الذي تخفيه بالضبط، قبل أن تطرق برأسها وتبدو عليها أمارات التفكير..

وطال صمت (إنچي)..

طال حتى أن (حنان) بدأت تدُقّ بقدمها فوق الأرض الرملية في ضجر، قبل أن تسأل:

- هل تستغرقين الكثير من الوقت عادةً لحسم أموركِ؟

رفعتْ (إنچي) عينيها إليها وقالت:

- ربما أخشى أنكِ لن تفهمي ما سأقوله.

تطلَّعت إليها (حنان) لحظات في صمت، قبل أن تقول:

- بل سيدهشكِ أنني سأبدي تعاونًا ملحوظًا معكِ، إذا صدقتِني للقول، للتخلُّص من هذه المشكلة.

سألتها (إنچي) في لهفة:

- أتعدين بهذا حقًا؟

أومأت (حنان) برأسها إيجابًا، وقالت:

- نعم، أعدكِ حقًا.

صمتت (إنچي) لحظات أخرى وهي تتطلَّع إليها كأنما ترغب في التيقُّن من صدقها، لكن عينَيْ (حنان) كانتا تدلَّان على صدق ما قالته، هذا بالإضافة إلى معرفة (إنچي) المسبقة بطبيعتها، والتي لم ترها تخالفها إلا اليوم.

وهكذا التقطت (إنچي) نفسًا عميقًا، ملأت به صدرها قبل أن تقول:

- فليكن.. سأخبركِ.. سأخبركِ بكل ما أعرف.

****

قالت (إنچي):

- أنت تعرفين بالطبع أنني من عائلة شديدة الثراء، لدينا أملاك كثيرة داخل (مصر) وخارجها، كلكم كنتم تعرفون هذا، وهو شيء لا أحاول إخفاءه.

الآن أحد هذه الممتلكات هي الڤيلّا.. أتذكرين الڤيلّا التي اجتمعنا فيها جميعا بالأمس؟ إنها ما أقصد. تلك الڤيلّا، هجرتها عائلتي منذ فترة، ولم تعد تذهب إليها، ولم تعد تترك حتّى أحدًا لحراستها..

ما لا تعرفينه أنتِ -وربما كان الرفاق كذلك أيضًا- هو السبب في هجرنا لها؛ فالحوادث المخيفة التي عانت منها عائلتي، لم تقتصر على جيل الآباء فقط، وإنما سمعتُ أن الأمر قديم جدًا.. حسبما حكى لي والدي ذات مرة، فالڤيلّا كانت يومًا ما قصرًا مهيبًا، يقف وحده في المنطقة المنعزلة للڤيلّات.. كانت هناك لعنة أو شيء ما يحيط بالقصر، وهو ما دفع أحد أجدادي القدامى للسعي إلى هدمه للتخلُّص منه.

يُقال إن جدّي صاحب فكرة الهدم مات بطريقة غريبة أثناء تنفيذها، وبرغم ذلك تم تنفيذ فكرته للنهاية، فهُدم القصر تمامًا، وظلّ مكانُه أرضًا فضاء لردح من الزمن، قبل أن يشيّد جدٌ آخر لي تلك الڤيلّا، على سبيل استغلال المساحة في شيء نافع.

لكن الحوادث لم تنتهِ أو تختفِ.. لقد تواصلتْ..

ربما يتكرّر في كل جيل أو كل بضعة أجيال، أن يحاول الأبناء هدم أسطورة الخوف والغموض المسيطرين على الڤيلّا، لكن النتيجة تكون نفس الشيء دائمًا.. كل المحاولات تبوء بالفشل.

هنا تحدّثتْ (حنان) لتسألها:

- ولماذا لم تحاولوا التخلص من الڤيلّا ببيعها أو هدمها مثلًا؟ وما سر ما يحدث بها بالضبط؟ وما علاقة ذلك بتجربة الكهف؟

ابتسمت (إنچي) ابتسامة شاحبة وهي تقول:

- تخيّلي محاولة التخلص بالبيع من بناء كهذا، تردّدتْ الشائعات حوله لزمن طويل أنه مسكون أو ما شابه، أتظنينها ستكون محاولة مجدية؟ مَن قال إنهم لم يحاولوا ذلك؟ لقد حاولوا وفشلوا بالتأكيد، وبقيتْ الڤيلّا على حالها.

أمّا عن السؤالين الآخرين عن سر ما يحدث بها بالضبط وعلاقته بتجربة الكهف، فسأجيبكِ عنهما معًا؛ حيث أنهما شديدا الارتباط ببعضهما البعض.. تجربة الكهف لم تكن سوى محاولة مني لفهم ما سر الڤيلّا بالضبط.. نعم قمتُ بتوجيهكم إلى التفكير في الڤيلّات والمنازل القديمة، لكنني فعلتُ ذلك آملةً في أن يرى أحدكم ما يكشف سرها الغامض.. لم أتصور لحظة واحدة أنكِ سترين القصر القديم في التجربة بدلًا من الڤيلّا.

قالت (حنان):

- لكنكِ استنكرتِ رؤياي ووصف القصر و.....

قاطعتها (إنچي):

- لا شك أن ما وصفتِه أثار عصبيتي ودهشتي وارتباكي.. من الواضح أنه بدلًا من أن تنطلقي في رحلة عبر المكان فحسب، تسيري فيها عبر الڤيلّا وتكشفي سرها، انطلقتِ في رحلة عبر الزمان والمكان، لترى القصر القديم نفسه.

تساءلت (حنان) في شرود:

- ربما لأن أصل السِرّ بدأ في القصر القديم نفسه.

قالت (إنچي):

- نعم، ربما.

تطلّعت إليها (حنان) لحظات في صمت، قبل أن تسأل:

- حسنًا، ولماذا كان الأمل في أن أرى أنا بالذات أي شيء؟

قالت (إنچي):

- السبب هو (يوسف).

رددت (حنان) في دهشة وحذر:

- (يوسف)؟!

أومأت (إنچي) برأسها إيجابًا في تأكيد، وقالت:

- نعم، إنه (يوسف).. (يوسف) أكّد في أكثر من موقف كونكِ ذات طبيعة شفّافة، تستطيعين أن تحدسي الأشياء الغريبة أو الخارقة للمألوف وأن تشعري بها.. حكى ذات مرة عن تلك الرحلة إلى المصيف التي لم أصحبكم فيها أنا وبعض رفاق المجموعة، لكنه أكّد أنكِ استثنيتِ أحد الشاليهات للإقامة فيه بحجة أنكِ غير مستريحة له، وعندما تحرّى الأمر، اتضح له أن جريمة قتل بشعة كانت قد وقعَتْ في ذلك الشاليه بالفعل.

هزت (حنان) بدورها رأسها موافقة، وقالت:

- نعم، لقد حدث ذلك.. و(يوسف) ردّد بعدها في أكثر من موقف، أنني أملك قدْرًا من الشفافية.

قالت (إنچي):

- وهكذا بدا لي الأمر أقرب إلى لعبة لا ضرر منها.. من جهة هي تجربة مسلية، ومن جهة ثانية هي اختبار لقدراتكِ ولصدق ما قاله (يوسف) عنكِ، وأخيرًا هي محاولة لمعرفة سر الڤيلّا.

بقيت (حنان) صامتة لحظات، تفكر قبل أن تضيّق عينيها وهي تسأل في حذر:

- ولماذا لم تجري تجربتك هذه في الڤيلّا؟ لماذا لم تأخذينا إليها فحسب؟ مجرد زيارتي لها كانت كفيلة بأن أستشعر وجود ذلك الشيء الذي تبحثين عنه.

قالت (إنچي) على الفور:

- وماذا عن المخاطرة؟ ماذا لو كان قد هاجمنا ذلك الشيء الغامض الخفي فيها، وحاول قتلنا مثلًا أو نجح في ذلك، مثلما حدث لنا أمس؟ كما أخبرتكِ، كنتُ أسعى لجعل الأمر أقرب إلى لعبة بلا مخاطر أو أضرار، وخطر لي أنه إذا كنا بعيدين بما يكفي عن الڤيلّا، وتم توجيه طاقاتكِ المتفوقة فقط لتتخيلي الشيء الذي أريده، فإن ذلك سيجنبنا خطرها أيًا كان.

سألت (حنان):

- حسنًا، ما الذي كان يضمن لكِ أن تنطلق طاقتي إلى تلك الڤيلّا بالذات؟ ولماذا كان اختياركِ لذلك الكهف في الصحراء كموضع للتجربة؟

قالت (إنچي) مبتسمة:

- أنتِ تجيبين نفسكِ.. الكهف هو موقع متميز للغاية بالنسبة للڤيلّا، يصل بينهما خط مستقيم بدرجة ميل معينة، يجعل هذا أرجحية اتصالكِ بالڤيلّا تفوق أي احتمال لأن ترى أي مكان آخر غيرها، فإذا قمتُ بتوجيهكِ من الكهف أثناء التجربة، كان من الطبيعي -وبنسبة كبيرة جدًا- أن تنطلقي بعقلكِ وطاقاتكِ إلى تلك الڤيلّا بالذات دون سواها.

غمغمت (حنان):

- معلومة غريبة!

قالت (إنجي) وهي تهز كتفيها:

- لستُ أنا مصدرها على أية حال.

سألتها في اهتمام:

- مَن إذًا؟

قالت (إنجي) متنهدة:

- الدكتور (نشأت).. (نشأت) كان مهتمًا بمثل هذه الأشياء، كما سبق وأن أخبرتكِ.

قالت (حنان) في استغراب:

- لحظة.. كلامكِ غير منطقي.. (نشأت) نفى...

لكن (إنجي) قاطعتها قائلة:

- نفى أن يكون ما حدث هو ما يعرف باسم الإسقاط النجمي، لكنه لم ينفِ أنه لم يكن على علم بمسألة الكهف.. والواقع أنني أعتقد أنه كان في سبيله إلى كشف شيء مهم، لكن أجله لم يمهله.

رمقتها (حنان) بنظرة مرتابة، قبل أن تسأل:

- أيعني كلامكِ هذا إذًا أنكِ تعرفين من الذي قتل (نشأت)؟

قالت (إنجي) في سرعة:

- بالطبع لا.. لقد كنتُ معكم، ومثلكم لم أرَ شيئًا في الظلام.. لكن لماذا تستبعدين كونه نفس القاتل الذي يقتنصنا منذ البداية؟

التقى حاجبا (حنان) وهي تسأل:

- أتقصدين وحش القصر؟

هزّتْ (إنجي) رأسها بالإيجاب وقالت:

- نعم.. إذا كان ما يقتلنا هو ذلك الوحش الذي كان يسكن القصر -وربما لا يزال يسكن الفيلّا الآن- فمن المحتمل جدًا أنه تخلّص من (نشأت)، قبل أن يكشف سر ما رأيتِ أنتِ في التجربة، حرصًا على الحفاظ على ذلك السر غامضًا.

أطرقتْ (حنان) برأسها وقالت مفكّرة:

- نعم، هذا يبدو معقولًا.

قالت (إنجي):

- الجيد في الأمر هو أنني قرأتُ مؤخرًا -في أحد كتب السحر- عن وسيلة ربما أفلحتْ في إنهاء كل هذا.

رفعتْ (حنان) رأسها إليها في لهفة وهي تسأل في اهتمام:

- وما هي؟

قالت (إنجي):

- دعيني أحذّرك أولًا.. تلك المحاولة ستنطوي على جانب كبير من الخطورة.. فهي تتطلب أن نعود إلى مبنى الڤيلّا المهجور نفسه مُجدّدًا.

الفكرة نفسها ولّدت قشعريرة باردة، شعرت بها (حنان) تسري في عمودها الفقري، ومنه إلى الأطراف لتشمل جسدها كله، برغم ذلك قالت في صوت حاولتْ أن يبدو طبيعيًا:

- سأحب أن أسمعها.

قالت (إنچي) في بطء وهي تضغط حروف كلمتها:

- Sacrifice.

التقى حاجبا (حنان) بشدّة، و(إنچي) تتابع:

- تضحية.. سنقدّم اعتذارًا بالتضحية بالدم، في قلب مبنى الڤيلّا نفسه على سبيل الترضية.. إنها وسيلة قديمة جدًا على أية حال، وقد تكون كافية لإيقاف اللعنة وكفّ أذاها عني وعنكِ.. فهناك احتمال كبير لأن يكون سعي الوحش ورائنا بسبب اقتحامكِ نطاق الزمن والمكان، لتغوصي في أعماق القصر؛ في محاولة منكِ ظنّ أن غرضها هو كشف سرّ ربما كان يحميه.

لم يرُد قولها (حنان) إلا تقطيبًا، فأضافت:

- ودعيني أخبرك من الآن، أن التي ستقوم بتقديم تضحية الدم هي أنتِ بلا شك.. فبعد كل شيء، أنتِ مَن حاولتِ اقتحام خصوصية القصر واختراق حاجزيّ الزمان والمكان وأنتِ مَن رصدها الوحش.

قالت (حنان):

- لكنه استثناني من القتل.

قالت (إنچي):

- ولم يقربني أيضًا حتّى الآن.. وأعتقد أنه لم يبقَ من المجموعة كلها سوانا أنا وأنتِ، فإمّا أن نفعل هذا معًا، وإمّا أن تتجنبه كل منا، ونعيش باحتمالات وتكهنات عمّا سيفعله بنا ذلك الوحش، في الأيام أو ربما الساعات القادمة.. وأنتِ بنفسكِ رأيتِ كيف أن انقضاضته مُهلكة، لا سبيل إلى الهرب منها.

عادت (حنان) لتطرق برأسها مفكرة في صمت استغرق نصف دقيقة تقريبًا، قبل أن ترفع رأسها إلى (إنچي) متسائلة:

- أنا لن أخوض ذلك وحدي، أليس كذلك؟

ابتسمتْ (إنچي) في هدوء، وقالت:

- اطمئني، سأصحبكِ إلى هناك.. أحد شروط التضحية المهمة، أن يحضر صاحب المكان أو شخص من أهله.. هذا يضمن لكِ أنني سأكون معكِ بالفعل.. فقط عليكِ أن تحلّي قيدي هذا.

أخرجت (حنان) سكينًا حادًا من طيات ثيابها المموهة، واتجهت به إلى (إنچي) لتحلّ قيدها... لكنها توقفت لتسألها:

- أمر أخير يا (إنچي).. لماذا لم تجرّبي أو حتّى تقترحي حيلة التضحية هذه من قبل؟ لقد كنا بالڤيلّا أمس فحسب.

قالت (إنچي) متنهدة:

- أولًا: كنا على خلاف شديد، ولم أكن لأقنعكِ أبدًا بإجراء تجربة ترضية بالدم في فيلّا قديمة.

ثانيًا: كان رجال الشرطة يراقبوننا، وكانوا سيفسدون علينا الطقوس بالتأكيد.

ثالثًا وهو الأهم: لم أكن قد قرأتُ بعد عن تلك الوسيلة وكيفية القيام بها.. وسط حاجياتي في السيارة ستجدين كتاب السحر، الذي عرفتُ منه تلك الطريقة صباح اليوم فحسب، إذا أردتِ التأكُّد مما أقول.

تطلَّعت إليها (حنان) بنظرة، فهمت منها (إنچي) أنها لا تثق بها، فقالت:

- حسنًا، لقد اتفقنا أن تثق كلتانا بالأخرى، وأن ننسى خلافاتنا القديمة من أجل إنهاء هذا، أنا أيضًا سأثق بأنكِ ستحاولين فعل ما فيه صالحي، ولن تحاولي الغدر بي مثلًا.. ولكِ عندي ضمان ألَّا أحمل أية أسلحة، واحتفظي أنتِ بالأسلحة التي تحملينها حتَّى النهاية، احتفظي كذلك بمفاتيح سيارتي وبكل ما يحلو لكِ من ضمانات أخرى.

اقتربتْ منها (حنان)، وانحنت تمزِّق الحبال التي قيَّدت يديها وقدميها بالسكين، ورأتها تتأوه وهي تفرك كفيها في ألم، فنهضت لتقول:

- ابحثي عن أي مياه تجدينها بسيارتكِ، واستعمليها لتغسلي وجهكِ، لا نريد أن نثير ريبة أحد في طريق عودتنا إلى المدينة.

نهضتْ (إنچي) في بطء مستندة إلى سيارتها، وفتَّشت فيها عن زجاجة مياه، ثم أخرجتها ووقفتْ تغسل بها وجهها وآثار الدم من ضربتيّ (حنان) لها في المرآة الجانبية لسيارتها، لتسمع (حنان) تقول:

- وفكري لنا في وسيلة ندخل بها القيلًا، دون لفت الانتباه إليها العبقرية.. لا بُدَّ أن الشرطة تبحث عنا الآن، وعن أي ناجٍ من مذبحة ليلة أمس.

قالت (إنچي)، وهي منهمكة في غسل وتنظيف وجهها:

- اطمئني.. في هذا الصدد لديّ خطة لا بأس بها لدخول القيلًا دون لفت الانتباه، لكن سيكون علينا انتظار حلول الظلام أولًا.

وبرغم أن (حنان) لم تكن تشعر بالراحة، فقد اكتفت بالصمت في هذه المرحلة.

فقد بدا لها أن الصمت في الوقت الحالي، هو أفضل ما يمكن أن تفعله.

****

في سيارتها الـ(بي إم دبليو) المكشوفة، جلستْ (إنچي) ومعها (حنان) في الظلام تراقبان القيلًا المظلمة، التي انتصبتْ كشبح أسود هائل يشعّ بانطباع مشؤوم، بدا أنه يثير توتر (حنان) بشدة، مما دفعها لأن تقول:

- ثم ماذا؟ هل سنبقى جالستين هكذا للأبد؟ لقد حلَّ الظلام بالفعل.

قالت (إنچي) وهي تنفث دخان سيجارتها:

- عليكِ أن تتحلي بالصبر.. لقد انتظرنا النهار بطوله، ثم خاطرنا بالدخول بالسيارة إلى منطقة القيلَّات دون أن نضيء مصابيحها.. دعينا نتأكد أن لا أحد بالداخل.. لن تكون مفاجأة سارة بالتأكيد، إذا وجدنا أنفسنا نحدِّق إلى رجال المباحث وجهًا لوجه، داخل مسرح الجريمة الآن.

قالت (حنان) في عصبية:

- أنتِ محقة بالتأكيد، لكنني لا أستطيع الانتظار أكثر.. الوقت يمر ولا بُدَّ أن الساعة اقتربت من العاشرة مساءً.. إرهاق عدم النوم طوال يومين كاملين يصيبني بالصداع، ويشترك مع كل هذا التوتر، لجعلي راغبة في استعجال الموت، إن كان سيريحني مما أنا فيه.

تطلّعت (إنچي) إلى ساعة معصمها، وقالت:

- لقد تجاوزتْ العاشرة.

سألتها (حنان) في ضجر:

- حسنًا، هل ستنتظر أكثر؟

قالت (إنچي) بعد أن التقطت نفسًا آخر من سيجارتها، وأطلقته في قوة:

- كنتُ أخطط للتحرك بعد منتصف الليل.

قالت (حنان) في عصبية شديدة:

- لسنا بصدد حضور حفل رأس السنة.. دعينا ننهي الأمر الآن!

عادت (إنچي) تقول:

- وماذا لو...؟

لكن (حنان) قاطعتها بنفس العصبية:

- علينا أن نجرّب، أليس كذلك؟

أومأت (إنچي) برأسها موافقة، وألقت بسيجارتها خارج السيارة، وهي تقول:

- أنتِ على حق.. إذًا كانت هناك فرصة لإنهاء الأمر الان، فدعينا نفعل.

غادرت كلتاهما السيارة في حذر، وقد حرصتا على ألّا تُصدرا أدنى صوت..

ومع اقترابهما من الحدود الخارجية لحديقة الڤيلّا، همستْ (حنان) تسأل:

- هل أحضرت كتاب السحر؟

أومأت (إنچي) برأسها إيجابًا، فعادت (حنان) تقول:

- أعطيني مفاتيح سيارتكِ إذًا، كما اتفقنا.

أخرجَتْ (إنچي) من جيبها سلسلة مفاتيح ناولتها إياها، وقالت:

- تفضّلي.. فقط حاولي ألّا يعلو صوتكِ، نحن لم نتأكد أن المكان خالٍ.

- أنا أهمس كما ترين.

كذا أجابتها (حنان)، وتحركت معها بضع خطوات، قبل أن تسأل بنفس الصوت الهامس:

- لا تخبريني الآن أنكِ ستدخلين عبر البوابة الرئيسية.

همست (إنچي):

- مستحيل أن أفعل طبعًا، هل تتصورين أنني فقدتُ عقلي فجأة؟ قلتُ لكِ إن لدي خطة لا بأس بها.. سنتسلل من الخلف.

وفي بطء دارت كلتاهما حول الڤيلّا، لتجد (حنان) بابًا صغيرًا ذا قفل صدئ، التفتت إليها (إنچي) لدى رؤيته وقالت:

- ناوليني المفاتيح الآن.. نحتاج إلى فتح هذا القفل.

ناولتها (حنان) المفاتيح، ورأتها تفتح القفل ثم الباب في حذر شديد، وتطل من فرجة ضيقة به على ما وراءه لحظات، قبل أن تعود إليها لتعطيها المفاتيح ثانيةً هامسة:

- المكان يبدو خاليا.

أخذتْ منها (حنان) المفاتيح، وهي تقول هامسة بدورها:

- لا بأس.. سنحتفظ بحذرنا.. لن يضرّنا في شيء.

لم تعلّق (إنچي) على ما قالت بحرف واحد، وإنما تسلّلتْ إلى حديقة الڤيلّا في حذر، كأنما رأت أنه من الأفضل أن تطبّق الكلام عمليًا، لتتبعها (حنان) متجاهلة إغلاق الباب الصغير..

كان من الواضح أن الحديقة خالية، ساكنة لا أثر فيها لبشر.. واقتربتْ (إنچي) من باب صغير آخر، ألصقت أذنها به وهي تهمس:

- إنه الباب الخلفي للمطبخ.. دعينا الآن نستمع إذا ما كانت هناك أي أصوات بالداخل.

تطلّعت إليها (حنان) في ترقُّب وتساؤل، لكنها ابتعدت عن الباب، وهي تقول بنفس الصوت الهامس:

- لا شيء.. لكننا بحاجة لإلقاء نظرة أيضًا.

وعندما فتحت باب المطبخ الخلفي، بدا الظلام القادم من خلفه سوادًا حالكًا يغلّف الڤيلّا كلها من الداخل، فهمست (حنان):

- أستبعد أن يكون هناك أحد بالداخل في هذا الظلام التام.

قالت (إنچي):

- وأنا كذلك.

قالت (حنان) وهي تبتلع ريقها في توتر:

- يجب أن نستعمل كشّافاتنا الضوئية لدخول المكان، مستحيل أن نتحرك في هذا الظلام المخيف.

قالت (إنچي) وهي تخرج هاتفها الخلوي:

- سنفعل، لكن بحذر وفي أضيق الحدود الممكنة.. لن نستعمل سوى كشّاف هاتف واحد. وسأجدُ من ضوئه بكف يدي.

وافقتها (حنان) بإيماءة من رأسها، وهما تسيران في حذر عبر المطبخ، قبل أن تتوقفا عند مدخل الباب الأمامي له، المُطلّ على بهو الڤيلّا، حيث بدأت (إنچي) تسلّط ضوء كشّافها في حذر وتدبره في المكان.

وكما بدا لهما، كانت الفوضى تَعُمُّ المكان بشدّة، وثمة آثار تدل على قيام رجال البحث الجنائي بأعمالهم كان أهمها ذلك الشريط المميَّز الذي يحدّد نطاق المذبحة، قالت (إنچي) وهي تطالعها:

- لقد كانوا هنا، لكنهم لم يعودوا كذلك.

وتقدمت في شيء من الشجاعة وهي تردف:

- ولستُ أخالهم سيستمرون في مراقبة المكان وسط هذا الظلام الدامس، كاميرات المراقبة نفسها لن تسجّل شيئًا، هذا إن كانت لا تزال تعمل أصلًا.

- أستبعد هذا.

نطقتها (حنان) في توتر لم تدرِ له سببًا، وازدردت لعابها بصوت مسموع، قبل أن تضيف:

- حسنًا، دعينا ننهِ الأمر سريعًا ونغادر المكان إذًا.. إنه يمنحني طابعًا مشئومًا لا شك فيه.

هزت (إنچي) رأسها موافقة، وقالت:

- فليكن، هيا بنا.

رأتها تتحرك نحو درجات السلم الصاعدة إلى أعلى، فسألتها:

- لماذا نصعد إلى الطابق العلوي؟

قالت (إنچي):

- من الأفضل أن تتم تجربتنا وطقوسنا في غرفة وأمام مرآة، وإن سألتني رأيي، فأنا أريد الابتعاد قدر الإمكان عن مكان أشلاء الجثث، إنه يسبب لي التوتر بما يكفي.

وافقتها (حنان) بهزة رأس صامتة، تحركت بعدها كلتاهما لتصعدا درجات السلم إلى الطابق العلوي، لتجد (حنان) نفسها في ممر طويل، اتجهت (إنچي) إلى أحد الأبواب الموجودة به، وفتحته لتسلط ضوء الكشاف وتلقي نظرة بالداخل، قبل أن تقول:

- هذه الغرفة تصلح وبها المرآة المنشودة.

تحركت (حنان) وتبعتها إلى داخل الغرفة، لترى (إنچي) تضع حقيبتها على الحاجز الموجود عند المرآة، وتخرج منها شمعتين أسرعتْ تشعلهما بقداحتها الخاصة، ثم تخرج قطعة من الطباشير، استعملتها لترسم بها دائرة ضيقة فوق الأرض، لم تكد تنتهي منها حتى التفتتْ إلى (حنان) تقول لها:

- هيا، تقدمي.

تساءلت (حنان) في حذر وتوتر:

- ماذا فعلتِ بالضبط؟

رأتها تخرج كتاب السحر من حقيبة يدها، وتقول:

- رسمتُ الدائرة التي ستقفين بداخلها، لكن بعد أن تسببي للنفسكِ جرحًا بسيطًا، ليتقاطر منه بعض الدم في خط مستقيم حتى المرآة نفسها.

سألتها (حنان) في توتر عصبي:

- ولماذا أفعل؟!

ابتسمت (إنچي) قائلة:

- لا تسألينني يا عزيزتي.. أنا نفسي لا أفهم سر كل هذه الخطوات، دعينا فقط نفعل المكتوب وننهِ الأمر سريعًا. حسبتُ أن هذا هو ما تريدينه.

هزت (حنان) رأسها بالإيجاب كأنما تقنع نفسها بما سمعت، وقالت:

- نعم، هذا صحيح.

- اجرحي أنتِ نفسكِ بنفسكِ.. يجب أن تفعلي هذا طواعيةً ودون إجبار.

وبرغم ما تشعر به (حنان) من توتر وعدم ارتياح يزدادان بداخلها في كل لحظة تمضي، فقد أخرجتْ سكينها، وتقدمت لتجرح يدها بعينين مغمضتين، ويد مرتجفة بدتْ أنها لا تريد أن تطاوعها فيما تفعل، لكن دماءها سالت لتتقاطر على الأرض، فقالت (إنچي):

- جرح بسيط سيفي تمامًا بالغرض. الآن اجعلي القطرات في شكل خط مستقيم حتى لو كان خطًا متقطعًا. يصل ما بين الدائرة والمرآة، ثم عودي لتقفي بداخل الدائرة وأغمضي عينيكِ.

انحنت (حنان) تدني جرح يدها من الأرض، لتتقاطر دماؤها في خط شبه مستقيم متقطّع بين الدائرة المرسومة على الأرض وبين المرآة، ثم عادت لتقف داخل الدائرة، وهي ترمق (انچي) في توتر، لتقول هذه الأخيرة وهي تفتح كتاب السحر الذي تمسك به:

- الآن أغمضي عينيكِ ولا تفتحيهما أبدًا إلا حين أخبركِ... وحاولي أن تتماسكي مهما حدث.

لكن (حنان) ظلت تتطلّع إليها، وشعورها بعدم الارتياح يتصاعد في أعماقها، مما دفعها لأن تقول:

- لا أشعر بالراحة.

لكن (انچي) قالت على الفور:

- ولماذا؟ أعتقد أنه مجرد شعور طبيعي بسبب الظلام وضوء الشموع، لكنني معكِ، ومفاتيح سيارتي معكِ.. دعينا ننهِ هذا الأمر.. لا يمكن أن نتراجع بعد أن بلغنا هذه المرحلة.

- معكِ حق.

قالتها (حنان) وأغمضتْ عينيها في توتر، وسمعتْ (انچي) إذ تفتح الكتاب، وقد راحت بصوت هامس تردّد بعض الأشياء غير المفهومة...

وشعرت (حنان) بتوترها يتزايد أكثر وأكثر، وبذلك الشعور بالخطر بداخلها يبلغ حدًا لا يُطاق، وأن ذلك الهاتف الخفي في أعماقها على وشك أن ينطق بصوت مسموع ليحثّها على الهرب، لكنها اكتفتْ بتقطيب جبينها، والوقوف الجامد، والكلمات الغامضة التي تردّدها (انچي) تتواصل قبل تتوقف مرة واحدة، لتسمعها تقول فجأة في لهجة أرعبتها:

- الآن أتركِ تواجهين مصيركِ.

انتفض جسد (حنان) لدى سماعها هذه العبارة، وفتحتْ عينيها لتتسعان في ذعر..

وللحظة أبصرت (انچي) عند باب الغرفة تبتسم في سخرية، وفي صدرها يتألّق ما يشبه قلادة، وسمعتها تضيف:

- كانت حماقة منكِ أن تنفّذي كل ما طلبتُه منكِ وأن تفعلي هذا بالذات.. كانت حماقة قاتلة.

حاولتْ (حنان) أن تتحرك للحاق بها، لكن هالها أن تلاحظ وراءها في المرآة ذلك الوحش العملاق، وقد وقف خلفها بالضبط ساكنًا يتطلّع إليها على نحو مخيف، فلم تكد تبدُر منها بادرة واحدة للحركة، حتّى اندفع منه سوط أسود غليظ يكبّلها وآخر ليلتفّ حول عنقها بقوة، وهي تسمع (انچي) تتابع في شماتة:

- أنتِ أغبى مخلوقة عرفتُها؛ إنكِ حتّى لم تلاحظي أنه من المستحيل أن أحتفظ بمفتاح سيارتي الحديثة وسط سلسلة مفاتيح قديمة لقيلًا لم نعد نستعملها منذ زمن، بل واتبعتِني إلى هنا لتقدّمي نفسكِ بنفسكِ قربانًا لـ(العَسّاس).

وحرّكتْ يدها بالتحية في سخرية، لتردف:

- أبلغي تحياتي إلى رفاقكِ من الحمقى والأغبياء في العالم الآخر.

راحت (حنان) ترفس بساقيها، وهي تشعر بذلك الوحش الذي أسمته (انچي) بـ(العسّاس) يرفعها في هواء الغرفة، لتقول بصوت متحشرج، وهي تقبض بيديها على ذلك السّوط الغليظ الأسود، محاولة تخفيف ضغطه عن عنقها:

- أيتها الخائنة الحقيرة!

لكن (انچي) كانت قد انصرفتْ بالفعل، وعلا وقْع خطواتها وهي تنطلق مغادرة المكان بسرعة، في حين أدار الوحش (حنان) إليه لتواجهه، ولتحدّق عيناها الدامعتان من شدّة الضغط، إلى عينيه الحادتين المخيفتين..

ورأتْ (حنان) في عينيّ الوحش نهايتها المحتومة.

****

حدّق الوحش إلى عينيّ (حنان) مباشرة، وخُيّل إليها أنها تسمعه يقول عبارة غريبة لم تفهم منها شيئًا، أتبعها بفحيح غاضِب، قبل أن يُقدِم على أغرب شيء توقّعتْه منه (حنان) على الإطلاق..

لقد أطلق سراحها فجأة، ليتركها تسقط فوق الأرض في عنف وتتأوّه في قوة..

ومن موضعها فوق الأرض، سمعته (حنان) يردّد كلمات أخرى بنفس لغته غير المفهومة، قبل أن يستدير ليبتلعه الظلام..

وسعلتْ (حنان) بقوة، وتحسّستْ عنقها غير مُصدِّقة نجاتها، وحاولتْ النهوض.. لكنها لم تقوَ عليه، فعادت تتهالك مستكينة فوق الأرض ثانيةً.

لحظات تمر، تشعر (حنان) بأنفاسها تهدأ وتصبح أكثر انتظامًا، يزول احتقان وجهها، فتستند بكفيها على الأرض لتنهض واقفة على قدميها في بطء، قبل أن تتحرك مترنّحة، لتغادر المكان..

وخارج الڤيلّا، ظهر واضحًا أن ساقيّ (حنان) -اللتين كانتا لا تزالان ترتجفان من أثر ما حدث- لن تحملاها بعيدًا، فعادتْ تسقط مجددًا فوق الأسفلت، وهي تتطلّع إلى الموضِع الخالي حيث كانت تقف سيارة (انچي)، وتُردِّد في ضعف:

- يا للخائنة!

وبرغم حالتها السيئة، وبرغم وعيها الذي راح ينسحب ببطء تاركًا خدرًا يسري في أطرافها، لم يكن عقل (حنان) قد كفّ عن طرح الأسئلة، التي جاء على رأسها أهم سؤال شغل بالها على الإطلاق في هذه اللحظات..

لماذا فعلتْ بها (انچي) ما فعلتْ، مُفضّلة الخيانة والغدْر على أي شيء آخر؟

هذا السؤال الذي بدا لها أن إجابته كفيلة بكشف كل ما يحيط بها غموض..

فقط إن استطاعتْ معرفة إجابته.

****

10- الحلم

في سيارة صغيرة متواضعة، جلستْ مجموعة من ثلاثة أفراد، شابَّيْن وفتاة، تطلَّع شاب وفتاة منهم إلى الطريق الذي ينطلق الشَّاب الآخر بهما فيه، قبل أن يقول الشَّاب الذي لا يقود، والذي كان نحيلًا خشن الشعر قصيره يرتدي نظارة طبية، في لهجة متضايقة:

- أقسم أنني لا أفهمك أبدًا يا (خالد)! أي طريق لعين هذا الذي جئتَ بنا إليه؟!

قال المدعو (خالد) في جدّية بدَتْ جزءًا من تكوين شخصيته، حتَّى أنها انحفرت في ملامحه واجتمعتْ مع شاربه المنمَّق، فأعطته سمتَيْ الصرامة والحزم برغم ملامحه التي تميل إلى الوسامة:

- إنه طريق مختصر يا (إيهاب).

قال (إيهاب) في حنق وبلهجة تقلب عليها السخرية:

- آه معذرة.. دعني أضيف هذا التعديل الجوهري إلى سؤالي.. أي طريق "مختصر" لعين هذا؟

قال (خالد) في جدّية:

- ألا يمكنك حذف كلمة "لعين" أثناء التعديل؟

مال (إيهاب) نحو الواجهة الزجاجية الأمامية للسيارة، حيث يجلس إلى يمين (خالد)، وألقى نظرة على السماء وهو يقول في سخرية:

- لا يلوح لي أن البركات تهوي إلينا من السماء، هو طريق لعين إذًا حتمًا!

أطلقتْ الفتاة التي تجلس بالأريكة الخلفية للسيارة ضحكة قصيرة، وقالت:

- لن يمكنك التخلُّص من سخرية (إيهاب) بسهولة يا (خالد)؛ إنها جزء من شخصيته.

ألقى (خالد) نظرة على ملامح وجهها الجميل في مرآة السيارة، التي دلَّت على أنها شخصية مرحة تخلو من الهم، دون أن يعلِّق على ما قالت بكلمة واحدة، في حين قال (إيهاب):

- نعم، أقنعيه بالله عليكِ يا (مها)، السخرية ليستْ شيئًا مقيتًا دائمًا.

وأشار برأسه إلى الطريق المظلم الذي تقطعه السيارة مردفًا:

- خاصةً إذا كانت للتقليل من رهبة طريق الموت الذي يصر على أن يسلكه بنا هذا.

قال (خالد) في حزم:

- لا أعرف ما الذي يضايقك في الطريق، إنه طريق هادئ يختصر علينا الكثير من الوقت ونحن في طريق العودة إلى منازلنا بدلًا من إضاعة الوقت في الزحام المعتاد.. ماذا إذًا لو أنه مظلم قليلًا؟

قال (إيهاب):

- نعم.. ماذا لو أنه مظلم قليلًا؟ لا شيء... ماذا لو أن القيلًات الموجودة عليه مسكونة بالأشباح أو الغيلان مثلًا؟ هذا أمر طبيعي.. لا شيء.. ماذا لو وجدنا الكونت (دراكولا) نفسه يستوقف سيارتنا، طالبًا أن نستضيفه معنا حتَّى بداية الطريق؟ مجرد مسخ يطلب مساعدة.. لا ضير في ذلك.. لا شيء.

عادت (مها) تطلق ضحكتها المرحة، في حين قال (خالد):

- وماذا لو توقفتَ عن استعراض احتمالات خيالك المريض؟ هل سيؤثر عليكَ هذا في شيء؟

كان (إيهاب) في سبيله لأن يجيب بسخرية كعادته، إلا أن (خالد) قطّب جبينه، وهو يضغط فرامل سيارته فجأة، مغمغمًا:

- يا إلهي!

ارتجّ الثلاثة في السيارة بقوة، مع توقفه المفاجئ. ومالت (مها) إلى الأمام لتسأل:

- ماذا هناك يا (خالد)؟ ما الذي جعلك تتوقف هكذا؟!

دار (خالد) بالسيارة نصف دورة، كأنه في سبيله إلى الرجوع، ومال بها قليلاً مضيئًا كشّافيْها الأماميين بالضوء العالي، ليكشف الطريق بوضوح أكثر في منطقة كان قد اجتازتها السيارة بالفعل، وأشار بسبّابته إلى شيء ما مُمدّد فوق الطريق وقرب جانبه، وهو يقول:

- انظري! إنه جسد مُمدّد على جانب الطريق.

قالت (مها) وهي تمعن النظر:

- يا إلهي! من ذلك الشخص بالضبط؟

قال (إيهاب) بسرعة:

- قد يكون الكونت (دراكولا) شخصيًا.. لكنه قرّر أن يلعب دور المتسوّل هذه المرة.

قال (خالد) وهو يفتح الباب الأيسر للسيارة ليهبط منها:

- ألا تكفّ أبدًا عن سخافاتك؟

وسألت (مها) في دهشة:

- إلى أين يا (خالد)؟!

قال في هدوء وحزم:

- سأتفقّد الأمر بالطبع.

وغادر السيارة، فأسرع (إيهاب) ينزل زجاج النافذة، ليهتف به:

- احترس من أن توكَل يا رجل!

لكن (مها) أسرعت تفتح الباب المجاور لها بدورها، وهي تقول:

- علينا أن ننضم إليه.

هتف بها (إيهاب):

- مهلاً! ماذا لو كان هذا فخًا بالفعل؟!

لم تلتفت إليه (مها)، وأسرعت الخطى وراء (خالد)، فسحب (إيهاب) مفتاح السيارة من موضعه، وقال وهو يلحق بهما:

- لا أحد يستمع إليّ أبدًا!

وعندما أسرع وراء رفيقيه، وجدهما قد بلغا الجسد المُمدّد، وانحنيا يتفحصانه، فلما بلغهما سمع "مها" تقول في دهشة حائرة:

- يا إلهي! إنها فتاة!

وسمع (خالد) يقول:

- لكن يبدو أنها قد تعرّضت إلى معاملة قاسية!

كانا قد قلباها على ظهرها، فتطلّع (إيهاب) إلى ملامح (حنان) الجميلة حيث رقدتْ فاقدة الوعي، وقال:

ـ يا لجمالها!

رماه (خالد) بنظرة لوم، جعلتْه يتنحنح وهو ينظر إليه قائلًا:

ـ أعني أنها حولاء العينين، أو لا بُدَّ أننا سنجدها كذلك حين تفتح عينيها حتمًا.. إنها ترتدي الزي المموَّه، لا بُدَّ أنها تعمل في تهريب المخدرات في (كولومبيا)، أو ربما كانت مشاركة في حرب (فيتنام) نفسها، ليستْ جميلة بالمرَّة!

وفي حين أطلقت (مها) ضحكة قصيرة أخرى للتعليق، قال (خالد) في ضيق:

ـ ألا يمكنك التوقف عن السخرية لحظة واحدة؟

قالت (مها) وهي تشير إليها:

ـ حقًا يا (خالد).. لماذا ترتدي فتاة مثلها زيًا كهذا، وترقد فاقدة الوعي في طريق مظلم مقفر بهذا الشكل؟

قال (خالد) في جدية:

ـ لا أعرف حتمًا.. لكن المؤكَّد أننا سنحملها معنا.

أسرع (إيهاب) ينحني على (حنان) ليحملها قائلًا:

ـ هذا هو القول يا صديقي العزيز.. لن نسمح أبدًا بأن تظل الفتيات الجميـ.. أقصد المريبات فاقدات الوعي على قارعة الطريق.

وأسرع يحملها إلى السيارة، ليتبعه (خالد) و(مها)، حيث رآياه يفتح الباب الخلفي للسيارة، ويضع (حنان) على أريكتها الخلفية برفق، قبل أن تمتد يد (خالد) لتمسك بذراعه وهو يقول في حزم:

ـ مهلًا! (مها) هي التي ستجلس بجوارها.

ـ لماذا؟!

هكذا صاح (إيهاب) في دهشة واعتراض، لكن (خالد) جذبه بعيدًا عن الباب في رفق لا يخلو من الحزم، ليفسح المجال لـ(مها) المبتسمة بالجلوس إلى جوار (حنان)، والأول يقول:

ـ أنا أجيد العناية بالفتيات.

ـ نعم، أعرف.

قالها (خالد) وهو يدور حول السيارة، إلى حيث مقعد السائق، فأسرع (إيهاب) يضيف:

ـ أعني فاقدات الوعي.

لكن (خالد) لم يعلِّق بحرف، وهو يعود إلى مقعد القيادة، و(إيهاب) يعود إلى مقعده إلى جواره، قبل أن يلتفت إلى الخلف إلى حيث (مها) و(حنان) ويسأل:

ـ ألا تحتاجين إلى مساعدة ما يا (مها)؟

ابتسمت (مها) وقالت في لهجة عتاب:

ـ اهدأ يا (إيهاب).. الفتاة تبدو مُرهَقة.

ومسحتْ على شعر (حنان) الناعم في رقة، وهي تضيف:

- انظر إلى حركة جفنيها المرتجفيْن، يقولون إن المرء منا يكون في مرحلة الحلم إذا ما ارتجف جفناه بهذا الشكل.

تنهَّد (إيهاب) وهو يتطلّع إلى ملامح (حنان) قائلًا:

- ترى بماذا تحلم؟

قال (خالد) في ضجر، وهو ينطلق بالسيارة من جديد:

- بالتأكيد ليس بشخص لحوح مثلك، لا يستطيع العيش لحظة دون سخرية.

التفت إليه (إيهاب) قائلًا في دهشة مصطنعة:

- حقًا؟ أراهن أنها تحلم إذًا بشخص مثلك، يتشقَّق وجهه إذا ابتسم، ويؤنبه ضميره لمدة سنة على الأقل!

maktabbah.blogspot.com

ولم تستطع (مها) منع نفسها من الابتسام، وهي تتطلَّع في المرآة إلى وجهيهما المتيرِّمين، قبل أن تعود بعينيها إلى (حنان) وتمسح بيدها على شعرها ثانية، وهي تقول:

- أتعشَّم أن تفيقي قريبًا.. فقلبي ينبئني أن وراءكِ حكاية، تختفي وراء إرهاق ملامحكِ وإصابة جبهتكِ وزيكِ المموِّه العجيب هذا.. حكاية أشعر أنها مثيرة.

****

- "لماذا؟"

هذه المرة كانت (حنان) عند شاطئ ما.. شاطئ ذي رمال ناعمة بيضاء، كوَّنت ساحلًا يلتقي بمياه فيروزية اللون هادئة، تُصدِر صوت حركة المياه الرقراق إذ تمتد وتنحسر عن طرف الرمال عند قدميها، وترتفع فوقها السماء الزرقاء عالية، تشع بنور لا تدري أين مصدره، لكنه يكفي لأن ترى نفسها ترتدي ثوبًا أبيض فضفاضًا، لا بُدَّ أنها كانت تبدو فيه -مع ملامحها الجميلة- كالملائكة.

وعندما دوَّى ذلك السؤال في عالمها، بصوت هادئ أنثوي يتبعه رجع الصدى، تلفتَّت (حنان) حول نفسها باحثة عن مصدره، وهي تتساءل:

- لماذا ماذا؟ من أنت؟ وأين أنا؟!

قالت صاحبة الصوت، وصوتها الهادئ وحده هو الذي يتبعه رجع الصدى كالمعتاد:

- أما زلتِ لم تتعرفي صوتي بعد؟

قالت (حنان) وعيناها ترصُدان مشهديّ المياه والرمال، اللذين يمتدان أمامها حتَّى يلتقيان بالأُفُق، دون أن ترَى مَن تحدِّثها، ودون أن ترَى سواهما:

- وأين نحن؟

قالت صاحبة الصوت الهادئ:

- أنت في عالم افتراضي يشبه عالم الأحلام، اخترتُ أكثر المشاهد التي تناسب حالتكِ وتوترك، رأيتُ أن أتصل بكِ من خلاله، بعد أن فقدتِ الوعي.

سألتْها (حنان) بعد أن كان قد استقرَّ حدسها على أن الصوت يأتيها من ناحية المياه، فوقفَتْ تواجهها:

- نحن نلتقي إذًا كلما فقدتُ الوعي؟

- أو كلما رحتِ في النوم.. تذكَّري المرة الأولى التي التقينا فيها.

تذكرت (حنان) تلك المرة التي انطلقت بها فيها صاحبة الصوت، لتخرجها من القصر في الحلم، حيث وجدت نفسها ملقاة وسط الأوحال خارجه، وتمتمت:

- نعم.

وسمعت صاحبة الصوت تسألها:

- لماذا ذهبتِ معها؟

قالت (حنان):

- أتقصدين مع (إنچي)؟ بدا لي كلامها منطقيًا.. بدا لي أنه قد يكون بمقدورنا -أنا وهي- أن نضع نهاية لكل ما نقاسيه.

قالت صاحبة الصوت بصوتها الهادئ الذي يخلو من الانفعال:

- برغم أنني حذرتُكِ منها، وبرغم أنها قالت عكس ما أخبرتُكِ به، فقد صدقتِها.

قالت (حنان):

- المفترض أنها كانت تعرف ما الذي تتحدث عنه.. المفترض أننا كنا نتحدث عن قصر أو قيلًا أجدادها.

- لا علاقة للقيلًا بالقصر.

هكذا قالت صاحبة الصوت، لتسأل (حنان) في دهشة:

- ماذا؟!

عادت صاحبة الصوت تكرّر:

- كما سمعتِ.. لا علاقة للقيلًا بالقصر.. لقد سبق أن أخبرتُكِ أن القصر غير موجود في العالم الذي تنتمين إليه.. ليس موجودًا في الأرض التي تعرفينها أو تعيشين فوقها.

قالت (حنان):

- لأنها قالت إنه كان متواجدًا في زمن آخر بعيد و.....

لكن صاحبة الصوت قاطعتها قائلة:

- ذلك القصر لم يتواجد على هذه الأرض لا في هذا الزمن، ولا في أي زمن آخر.. إنه قائم وسط عالم آخر تمامًا.. بُعد مختلف غير الذي يعيش فيه البشر.. لا أحد يدري منذ متى وهو هناك، لكنه باقٍ إلى ما شاء الله.

التقى حاجبا (حنان) وهي تقول محاولة استيعاب هذه الحقيقة:

- إذًا فـ(إنچي) كانت تكذب.

- هذا صحيح.

أمْنَتْ صاحبة الصوت على قولها بهذه الكلمة، لتظهر الحيرة واضحة جَلِيّة، تحفر علاماتها على وجه (حنان)، وهي تسأل:

- إذا كان ما تقولينه صحيحًا، فما هو ذلك القصر؟ ما سرّه؟ وكيف ذهبتُ إليه؟

وقبل أن تجيبها صاحبة الصوت، بدا أن (حنان) قد تذكرت شيئًا، فأسرعَتْ تضيف:

- ومَن هو ذلك الوحش (الخنّاس)؟ ولماذا يهدّدنا جميعًا بالموت؟

قالت صاحبة الصوت:

ـ القصر مكان خاص جدًا.. مكان مُحرَّم.. محظور.. يقف منعزلًا وحده في ذلك البُعد وسط جو عاصف يملأه المطر والبرق والرعد كما رأيت...

في تجربتكم، ونظرًا لشفافيتك، تم توجيهك عن عمد إلى القصر، من نقطة اتصال طبيعية متفوِّقة هي الكهف، الذي لم يتم اختياره اعتباطًا أو بمحض الصدفة.. تم توجيهك إلى القصر لتدخليه أنتِ بدلًا ممَّن أراد الدخول إليه في الأصل؛ ذلك الجبان الذي يعرف قواعد ذلك العالم الصارمة التي تقول إن كل مَن يحاول الدخول إليه، مصيره الموت.

كانت (حنان) صامتة تحاول استيعاب هذه الحقيقة، في حين تابعتْ صاحبة الصوت الكلام قائلة:

ـ الوحش، (الغسّاس)، هو حارس القصر.. حسب قواعد عالمه فأنتم تستحقون الموت، كل مَن شاركوا في التجربة كذلك، لذا فهو لن يهدأ أو يستكين حتى يتأكَّد من موتكم جميعًا.

قالت (حنان) في حيرة:

ـ لكنه عمد إلى قتل الجميع فيما عداي أنا و(إنچي)، برغم أنه لم يصل إلى القصر منهم سواي!

قالت صاحبة الصوت:

ـ (الغسّاس) حارس متفوِّق، غير محدود القدرات، والمعلومات المعروفة عنه أقل ما يُمكن.. لكن الشيء المؤكَّد هو أنه لم يركِ في المرة الأولى لدخولكِ القصر؛ لو رآكِ لقتلكِ فورًا، ولما استطعتِ الهرب منه أبدًا.

لكن بعد ما حدث بالقصر، كان على (الغسّاس) أن يعرف أولًا مَن الذي دخل إلى القصر وغادره دون أن يلاحظ وجوده.

سألتها (حنان) في اهتمام:

ـ وكيف عرف بوجودي في القصر، إذا كان ـحسب قولكِـ لم يرَ دخولي أو انصرافي؟ هل أحسَّ به مثلًا؟

قالت صاحبة الصوت:

ـ أي كيان قد يتسلَّل إلى القصر، لا بُدَّ أن يترك خلفه أثرًا، وجزء من عمل (الغسّاس) أن يقتفي ذلك الأثر.

رددت (حنان) في حيرة:

ـ أثر؟ أي أثر؟! مثل ماذا؟!

قالت صاحبة الصوت في اقتضاب:

ـ طاقتك.

تمتمت (حنان) بكلمة غير مسموعة، كأنما ترديد نفس الكلمة بلا صوت تقريبًا، قبل أن تقول بصوت واضح:

ـ لم أفهم شيئًا!

قالت صاحبة الصوت:

ـ كما يُقال، الطاقة لا تفنَى ولا تُستحدَث من عدم.. الطاقة لا تفنَى.. طاقة وجودكِ بالقصر لم تفنَ، وإن تبقَّى منها الشيء اليسير، الذي كان من المفترض أن يتشتَّت بمرور الوقت إلى طاقة حرارية، وتُوزَّع هذه بدورها في الوسط المحيط كله.

لم تختفِ أمارات الاستغراب من وجه (حنان)، بل ازدادت الحيرة في صوتها وهي تقول:

- ما زلتُ لا أفهم!

قالت صاحبة الصوت:

- ماذا يحدث إذا تركتِ يدكِ على سطح مكتب مثلاً؟ ما يحدث هو أنه بعد فترة تترك حرارة يدكِ أثرًا دافئًا، يكون محسوسًا جدًا إذا كان ذلك السطح الذي لامسه باردًا في الأصل. ذلك الأثر الدافئ الذي تتركه حرارةَ يدكِ، هو الطاقة الحرارية التي تجعلنا نعرف إذا ما لمسنا ذلك السطح أن شخصًا ما كان يلامسه.

قالت (حنان):

- ومثلما يجلس أحدهم على مقعد لفترة طويلة مثلًا، فيترك أثرًا حراريًا بالمقعد، يدل على أن شخصًا كان يجلس عليه من قبل، وربما لو كان ثقيل الوزن مثلًا لترك أثر انضغاط واضح لفترة... نعم، أفهم هذا.

قالت صاحبة الصوت مؤمِنّة على كلامها:

- بالضبط. الآن ماذا يحدث مع مرور الوقت؟ الأثر الحراري الذي تركتِه على السطح من جرّاء ملامستكِ له، يأخذ في التشتُّت إلى الوسط المحيط، حيث يُوَزَّع فيه بالتساوي لكنه لا يختفي. ويظل بواسطة بعض الالات والأجهزة أن تتبُّع ذلك الأثر الحراري لفترة، وهذا ما أتحدث عنه..

(العسّاس) عثر على أثر طاقتكِ بعد أن انسحبتِ من القصر، واستغرق منه الأمر شهرًا تقريبًا نظرًا لأنه أثر ضئيل جدًا، وهو يدرس هذه الطاقة ويفحصها ويحاول تجميعها بدلًا من التشتُّت، ليعيد هو هذه المرة الاتصال بكِ.

قالت (حنان) في حيرة:

- يعيد الاتصال بي؟ كيف؟!

قالت صاحبة الصوت:

- عن طريق الحلم.. حلم الغرفة الضيِّقة، هل تذكرينه؟

هزت (حنان) رأسها أن نعم، وقالت:

- نعم، أذكره بالتأكيد.

تابعت صاحبة الصوت قائلة:

- في تلك الحلم كان (العسّاس) يريد أي رد فعل منكِ، يتأكد به أنكِ نفس الكيان الذي دخل القصر من قبل، أراد أن يثير ضيقكِ وفضولكِ حتّى تغادري الغرفة بأي شكل، فأي طاقة تنتج عنكِ من أي فعل تقومين به، كانت تؤكّد له هويتكِ أكثر وأكثر، ولذا فقد راح يكرر الاتصال بكِ، ويعيد الحلم مرة بعد مرة، حتّى بدأتِ تستجيبين أخيرًا وحاولتِ مغادرة الغرفة.

قالت (حنان) وقد بدأت تستوعب الأمر بعض الشيء:

- يا إلهي! هذا صحيح بالفعل.. كأن شعوري الذي كان ينبئني ألّا أغادر الغرفة صحيح، وكان عليّ أن أستجيب له.

قالت صاحبة الصوت:

- لم يكن ليترككِ وشأنكِ أبدًا إلى أن تحاولي مغادرة الغرفة.

قالت (حنان):

- لقد حاولتُ، وخُيِّل إليّ أنني رأيتُ ظِلَّه من وراء الباب، المرة الأولى التي حاولتُ أن أغادرها فيها.

قالت صاحبة الصوت:

- لا بُدَّ أنه كان هو نفسه.. لا بُدَّ أنه كان واقفًا يراقبكِ عن قرب.. أراد التيقُّن.. وربما لاحظ أن وجوده أثار خوفكِ، فاختفى في المرة الثانية، ليسمح لكِ بالخروج والتجوال في المكان وتأكيد طاقتكِ أكثر وأكثر.

قالت (حنان):

- هذا ما حدث.

غمغمت صاحبة الصوت:

- إنها طريقته المعتادة.

سألت (حنان):

- لكن لماذا كانت كل تلك التأكيدات؟

قالت صاحبة الصوت بلا انفعال كعادتها:

- لتقوية الاتصال.

قالت (حنان):

- من جديد هذا غير منطقي.. لقد بدأتْ حوادث القتل بالفعل قبل أن أغادر الغرفة.

قالت صاحبة الصوت كأنما تحسم حيرة (حنان) قبل أن تتمكَّن منها:

- لكنها لم تبدأ إلا بعد الحلم الأول، أليس كذلك؟

قطَّبت (حنان) جبينها وهي تتذكر، قبل أن تغمغم في خفوت:

- بلى، هذا صحيح!

قالت صاحبة الصوت:

- (العَسَّاس) تأكَّد من هويتكِ بعد الحلم الأول، وسعى إلى التخلُّص من رفاقكِ، كل مَن شاركوا في التجربة، لكن ليس هذا ما أراد تقوية الاتصال من أجله.. (العسَّاس) سعى إلى تقوية الاتصال، لينتقل من عالمه إلى عالمكِ.

اتسعتْ عينا (حنان) في ارتياع، ووَدَّت أن تقول شيئًا، لولا أن تابعت صاحبة الصوت:

- ما جال بخاطركِ الآن صحيح.. (العسَّاس) كان يستعمل الماء دائمًا كوسيلة اتصال وهو بعد في عالمه للقتل، ولا بُدَّ أن رفاقكِ الضحايا لقوا مصرعهم في أماكن ذات صلة وثيقة بالماء.

هزَّت (حنان) رأسها كالمأخوذة وهي تقول:

- نعم، أولى الضحايا كانت (لمياء) في دورة المياه الخاصة بمنزلها، لا أعرف ماذا بشأن (سلمى) و(رءوف) والآخرين! لكن الهجوم الذي شهدتُه بنفسي كانت فيه تلك المياه الدكناء بالفعل.. الكثير منها.

قالت صاحبة الصوت في تأكيد:

- لا بُدَّ أن الأمر كان كذلك معهم جميعًا.. لا بُدَّ أن يبدأ بالاتصال عن طريق المياه، فهي أحد أقوى عناصر عالمه الممطر ذي الأرض الموحلة الغارقة في المياه.

على الأقل كان يجب أن يفعل ذلك حتّى الليلة الموعودة.

بدا التساؤل على وجه (حنان) لحظات، قبل أن ينتقل إلى لسانها، فتسأل:

- ماذا تقصدين بالليلة الموعودة؟!

قالت صاحبة الصوت:

- إنها تلك الليلة التي راودك فيها الحلم الذي التقينا فيه معًا أنا وأنتِ.. الليلة الممطرة.. تلك الليلة الممطرة، التي صادف فيها هطول المطر في عالمك المطر الدائم في عالمه، وأصبح الاتصال أقوى ما يمكن، مما كان يؤهّله أخيرًا للانتقال، ولقد فعل.

سألتْ (حنان) في انزعاج:

- أتعنين أنه الآن في عالمنا؟

قالت صاحبة الصوت:

- بالضبط.. ولا أخفيكِ سرًا، فأنتِ على حق فيما شعرتِ به من خوف.. (الغسّاس) استطاع أن يتتبّع رفاقكِ ويمزقهم إربًا، وهو بعد في عالمه ودون أن ينتقل إليكم بالفعل، وانتقاله إليكم يعني أن قدراته -التي كان يقويها في كل مرة يجري فيها اتصالًا ليقتل أحد رفاقكِ- ستتضاعف الآن حتمًا إلى مستويات غير متوقّعة.

شعرت (حنان) بالتوتر مع كل ما تسمع، فقالت:

- لكن لماذا؟ لماذا كان عليه الانتقال إلى عالمنا؟ ولماذا لم يقتلني أنا أو (إنچي)؟ لقد قتل الرفاق جميعًا ولم يدخل أحد القصر سواي، ولم يحثّنا على إجراء التجربة سوى (إنچي)!

قالت صاحبة الصوت:

- (إنچي) مخادعة.. تعرف أكثر مما تُبدي.. ولا بُدّ أنها ظلّت تحصّن نفسها منه بوسيلة ما.

قالت (حنان) في ضيق:

- أنتِ أيضًا لا تقولين كل ما تعرفينه.

قالت صاحبة الصوت بنفس هدوء نبراتها:

- أنا مُلزمة بحدود لا يمكنني تخطّيها.

هتفت (حنان) في عصبية محتدّة:

- أي حدود سخيفة هذه؟ ماذا تقصدين؟

لكن صاحبة الصوت بقيتْ صامتة هذه المرة بعض الوقت، قبل أن تقول:

- لنعُد إلى إجابة سؤالكِ الآخرين، فهُما الأهم الآن، خاصةً وأنا أشعر أن اتصالنا يشوبه شيء غريب!

تساءلتْ (حنان) وقد تبدّل انفعالها من الغضب إلى القلق:

- ماذا تعنين بشيء غريب؟!

قالت صاحبة الصوت:

- جبهتكِ ضعيفة جدًا يا (حنان).. جبهتكِ هي الجبهة الأضعف في المعركة كلها.. ومشكلتكِ هي أنكِ تجهلين الكثير.. تجهلين مثلًا أن (الغسّاس) لم يتجاهل قتلكِ، وإنما هو فقط يبقي على حياتكِ حتّى....

انقطع الصوت الأنثوي الهادئ فجأة عند هذا الحد، لتستقبل (حنان) بدلًا منه صوت شوشرة مزعجة، كأنها تستمع إلى مذياع يعاني من سوء الإشارة.

ثم عادت تسمع الصوت الأنثوي مُجدّدًا وصاحبته تقول:

- تذكري أنه لا يجب أن يجد أبدًا ذلك الختم أولًا يا (حنان).. ليس في صالحكِ أن يجده... سوف...

مرة أخرى عادتْ تلك الشوشرة المزعجة تعلو لتقطع الصوت الأنثوي الهادئ، وخُيِّل لـ(حنان) أنها تسمع صوت مياه أقرب من المياه الفيروزية أمامها، فخفضتْ عينيها إلى ما تحت قدميها، واتسعت عيناها في ذعر، وهي تشاهد تلك البقعة من المياه الدكناء التي كانت تنبع من قلب الرمال البيضاء في بطء، قبل أن تتدفق بشدة مرة واحدة، وتندفع لتختلط بالمياه الفيروزية لتبدّل لونها في لحظات إلى لون أسود كابوسي..

وحتى الرمال لم تعد بيضاء..

لقد أصبحت حمراء بلون الدم، واكفهرت السماء لتتلبد بغيوم دكناء، فتراجعتْ (حنان) وهي تغمغم:

- لا!

وبدا لـ(حنان) كأن المياه تفور، ليخرج منها عملاق رهيب، رماها بنظرة مخيفة من عينيه المزعجتين، وهو يتقدّم منها مرددًا كلمات لا تفهمها بصوت عميق.

ومع تراجعها تعثرت (حنان) لتسقط على ظهرها فوق الأرض، في نفس اللحظة التي فتح فيها (العسّاس) فكيه، كاشفًا عن صفّين من أنياب مخيفة وهو يميل برأسه نحوها ليطلق صيحة رهيبة..

صيحة بدت كأنما لا تزلزل العالم الافتراضي من حولها فحسب..

بل يمتد أثرها إلى زلزلة كيانها نفسه.

****

عندما أفاقت (حنان) وحاولت فتح عينيها هذه المرة، كان أول ما استقبلهما هو ضوء أبيض هادئ لم تعتاداه، فأجبرها على إغلاقهما في ألم، وهي تسمع صوتًا ذكوريًا غير مألوف يقول:

- إنها تستعيد وعيها.

كانت تشعر بالتوتر، لذا فقد رفعت ساعدها أمامها، لتتجنّب الضوء المباشر، وعادت تفتح عينيها، لتلقي نظرة، وليقع بصرها على مجموعة الشباب الثلاثية الذين اصطحبوها معهم، مما دفعها لأن تسأل في حيرة:

- أين أنا؟ ومن أنتم؟!

تقدمت منها (مها)، لتقول مبتسمة:

- حمدًا لله على سلامتكِ.

لكن (حنان) بدت متوترة وعصبية وهي تكرّر سؤالها:

- أين أنا؟ ومن انتم؟!

قال (خالد) هذه المرة في جدّية:

- لا تقلقي.. إننا لا نريد بكِ شرًا.. كل ما في الأمر أننا وجدناكِ بالصدفة فاقدة الوعي على جانب طريق مظلم، ورأينا أن نساعدك.

وأسرع (إيهاب) يضيف:

- ونتساءل عمّا ورائك وعن السبب في كونك ترتدين هذا الزي العجيب بلا شك.

انتبهتْ (حنان) في هذه اللحظة أنها لا تزال بزيها المموّه، وأنها ترقد على فراش نظيف بحذائها طويل الرقبة، فيما يشبه غرفة ضيّقة متواضعة، فحاولت أن تنهض في إرهاق، لتجد نفسها تتأوه في ألم، فتسرع إليها (مها) لتسندها، كي تجلس مستندة بظهرها إلى وسادة قائمة على ظهر السرير، وهي تقول:

- إذًا فقد وجدتموني عند القيلًا.

تبادل الثلاثة النظرات، قبل أن يقول (إيهاب):

- نعم، وجدناكِ هناك، وكل ما فعلناه حتّى الآن هو نقلكِ إلى هنا، ومحاولة تضميد جرح جبهتكِ.

رفعت (حنان) يدها تتحسس جبهتها، إلا أنها وجدتْ ملمس ضمادة عريضة أحاطت برأسها، فعادت تسأل:

- ومَن أنتم بالضبط؟

قالت (مها) هذه المرة في شيء من المرح:

- آه.. نسينا أن نقدّم أنفسنا..

أنا (مها).. في الخامسة والعشرين من العمر.. أعمل صحفية.

وأسرع (إيهاب) يقول:

- وأنا (إيهاب).. ثلاثون عامًا.. المفترض أنني مهندس اتصالات، لكنني أعشق التصوير.. نحن هنا أصلًا في الاستوديو الصغير الخاص بي.

أمّا (خالد) فقال عندما انتقلت إليه عينا (حنان):

- وأنا (خالد).. ثلاثة وثلاثون عامًا.. أعمل كصحفي أيضًا.

أسرع (إيهاب) يقول:

- لكنه خريج كلية العلوم في الأصل.. برغم ذلك تجمعنا مهنة الصحافة كما ترين.

لا تعرف (حنان) لمَ شعرت بالراحة نحوهم.. ربما للبساطة التي قدّموا أنفسهم لها بها.. ربما لمساعدتهم إياها.. ربما هو شيء في مرح (مها) أو عبث (إيهاب) أو جدّية (خالد)..

المهم أنها وجدت نفسها تُقدّم نفسها إليهم بدورها قائلة:

- وأنا (حنان).. ستة وعشرون عامًا.. لا أعمل شيئًا في الوقت الحالي.. لكنني تخرجت في كلية التجارة شعبة اللغة الإنجليزية، وجرّبتُ العمل لفترة بإحدى الشركات، ثم...

توقفت عن إتمام عبارتها وهي تهز كتفيها، كأنها ترَى أن هذا الجزء لا يستحق الحديث عنه.

وابتسمت لها (مها) قائلة:

- حسنًا.. إنها فرصة سعيدة يا آنسة (حنان).

وأسرع (إيهاب) يسأل:

- أنتِ آنسة، أليس كذلك؟ أعني، أنتِ غير مخطوبة أو.....

لكن (مها) لكزته بمرفقها ليصمت وهي تبتسم، فتنحنح قائلًا:

- أعني أننا كنا نتساءل عن الشيء الذي أدّى إلى الحالة التي وجدناك عليها.

وأسرعت (مها) تضيف بابتسامتها الجذابة:

- هذا إذا كنتِ ترغبين في التحدث.

أمّا (خالد) فاكتفى بالصمت، كأنما لا يعنيه كثيرًا أن تتكلم (حنان) أو لا تفعل..

وبقيت (حنان) تتطلّع إليهم في صمت لحظات، قبل أن تقول مبتسمة:

- حسنًا.. يبدو أنكم مجموعة ظريفة بالفعل.. يسعدني أن التقيتُ بكم.

ثم حاولت التعديل من وضعها على السرير وهي تقول:

- لكنني سأثقل عليكم أولًا بطلب ربما تجدونه غريبًا جدًا.. أنا أشعر بجوع شديد، فأنا لم أتناول أي شيء منذ وقت طويل.. هلّا تناولنا شيئًا معًا أولًا، ثم أحكي لكم بعدها ما شئتم؟

قال (إيهاب) في حماس شديد:

- نعم.. هذا هو القول المشجّع.

رماه (خالد) بنظرة لائمة، فأسرع يقول:

- أعني أنها فكرة جيدة.. الطعام شيء حتمي لا بُدّ منه.. سأطلب لنا جميعًا وجبة جيدة.

ابتسمت له (حنان) ورفعت قبضتها المضمومة بإبهامها المفرود علامة الإعجاب، مما دفع بالحماس في عروق (إيهاب) أكثر، فاندفع يجري اتصالًا بهاتفه.

وإذ تبادل (خالد) و(مها) النظرات، أسبلت (حنان) جفنيها وهي ترجع رأسها لتستند به على الوسادة في وضع مسترخٍ، وبدت لهما في هذه اللحظة كأنها تستمتع بلحظات من الراحة والأمان..

راحة وأمان افتقدتهما طويلًا.

****

11- الكَشْف

أرجعتْ (حنان) ظهرها ورأسها إلى الوراء، لتستند بهما إلى وسادة قائمة على ظهر السرير، وتنهدَتْ قائلة:

- بهذا أستطيع أن أخبركم أنني قد حكيتُ لكم، بكل ما استطعتُ أن أذكر من تفاصيل، كل ما حدث لي حتَّى لحظة استردادي لوعيي بينكم هنا.

وفي حين ران الصمت على الاستوديو الصغير لـ(إيهاب) إثر قولها الأخير، تبادَل هذا الأخير النظرات مع رفيقيه (خالد) و(مها)، وبدَتْ عليهم أمارات التفكير لدقائق، قبل أن يقول (خالد) في جدّية:

- لولا أننا وجدناكِ فاقدة الوعي في وضع غير طبيعي، لقلتُ على الفور إن الذي حكيتِه لنا للتو، ما هو إلا قصة نسجها خيالكِ الواسع.. فأنا لم أسمع قط من قبل عن ذلك (العَسَّاس) أو قصره، وأكاد لا أصدِّق ما قلتِ.

أشارت (مها) بسبابتها قائلة:

- لكن هناك دليلًا آخر يدعم قِصَّتها على نحو ما يا (خالد): إنها جرائم القتل.. كصحفيين، سمعنا بالفعل عن جرائم قتل غامضة متكرِّرة، ولأننا لا نعمل في قسم الحوادث، فلم ننالِ بالتحقيق في الأمر ومعرفة أية تفاصيل عنه.

هنا قالت (حنان) في هدوء:

- مهلًا! أنا لم أخبركم بقِصَّتي أملًا في أن تصدِّقوها أو طلبًا للمساعدة منكم، لكنني فعلتُ هذا لأنني وجدتُ أنه من أبسط حقوقكم أن تعرفوا إجابة سؤالكم، بعد إنقاذكم لفتاة وجدتموها فاقدة الوعي، في وضع مريب على طريق مظلم عند فيلَّا مهجورة.

قال (إيهاب) بسرعة:

- نحن لا نقصد أننا نشكُّ في أمركِ بالطبع.

ورمَى (خالد) بنظرة لائمة بطرف عينه وهو يضيف:

- نحن فقط نعبِّر عن الدهشة والحيرة التي نشعر أنها تملأ أعماقنا بعد سماعنا قصتكِ.

غمغمت (حنان):

- على كل حال، ليس بوسعي إلا أن أشكركم، تعبيرًا عن الامتنان الذي أشعر به لما فعلتموه معي حتَّى الآن، وأطلب منكم فقط أن تكملوا معروفكم، بأن تتركوني نائمة لبعض الوقت هنا، فأنا بحاجة إلى النوم بشدة خاصةً بعد أن تناولتُ الأكل معكم، وبعد كل الإرهاق الذي مررتُ به.. وبعدها أعدكم بأن أخطط لأموري جيدًا فور استيقاظي بحيث لا أثقل عليكم مجدَّدًا.

لكن (إيهاب) أسرع يقول:

- ومَن قال إنكِ تثقلين علينا الآن بأي شكل من الأشكال؟ اعتبري المكان مكانكِ بالطبع.

غمغمت (حنان) مبتسمة في إرهاق:

- أشكرك.

قالت (مها) في هذه اللحظة:

- فقط كنتُ أرغب في مناقشة بعض الملاحظات على ما حكيتِ.

قالت (حنان) في تكاسل مرهق:

- حسنًا، هل يمكنك إرجاءها فقط إلى حين استيقاظي؟ أنا بحاجة إلى النوم.

فتحت (مها) فمها لتقول شيئًا، لكن (إيهاب) أسرع يقاطعها قائلًا:

- يمكننا إرجاء كل شيء إلى حين استيقاظك.. يمكنك أن تنامي وتستريحي الآن.. هيا يا رفاق، دعونا نغادر الغرفة.

التقى حاجبا (مها) قليلًا إلا أنها لم تعترض، وتحركت معه ومع (خالد) ليغادر ثلاثتهم الغرفة الصغيرة، فيطفئ (إيهاب) ضوءها ويغلق بابها، إلى غرفة أخرى أشبه بغرفة المعيشة بدت أكثر فوضى واتساعًا، ليهمس فيها (خالد) في عصبية:

- ما هذا الذي فعلته؟

قال (إيهاب) بصوت خفيض بدوره:

- ماذا؟ الفتاة طلبت أن نتركها تنام. هل تتصور أنه كان من الطبيعي أن اقابل طلبها بالرفض وأطردها مثلًا؟

قال (خالد) بنفس العصبية:

- حسنًا، أتمّ معروفك إذًا واتركها تبيت ليلتها هنا بلا رقابة!

اقتادتهما (مها) بعيدًا أكثر عن باب الغرفة، وهي تقول في صوت خفيض بدورها:

- على الأقل دعونا نناقش هذا بعيدًا عن باب الغرفة.

أمَّا (إيهاب) فقال في ضيق:

- ومع أنني لا أحتاج إلى نصائح أحد، لكن الفتاة لا تبدو مخادعة أو محترفة سرقة، دعك من أن الاستوديو هنا بسيط الإمكانيات، لن تجد فيه أي شيء يصلح للسرقة.

وصمت لحظة زفر خلالها، قبل أن يقول:

- ثم أننا نستطيع أن نبيت ليلتنا هنا معها.

قال (خالد) في استنكار:

- و(مها)؟ هل ستجعلها تبيت خارج منزلها؟

قال (إيهاب) في دهشة:

- وما الذي يستدعي أن تبيت (مها) هنا؟ يمكنها أن ترحل.. سيارتك بأسفل ويمكنك أن توصلها.

كاد (خالد) يهتف وهو يقول في عصبية:

- وتبيت أنت معها هنا وحدك؟ قل إنك كنت تخطط لهذا من البداية!

بدت العصبية على (إيهاب) بدوره، وهو يقول محاولًا ألَّا يعلو صوته:

- ماذا دهاك يا (خالد)؟ كُفَّ عن معاملتي كشخص مراهق.. كل الحلول الآن لا يعجبك منها سوى حتمية طرد الفتاة.. لا يعجبك أن نتركها وحدها.. لا يعجبك أن نبيت معها.

تدخَّلت (مها) محاولة تهدئة الجو:

- حسنًا، حسنًا، الأمر بسيط، يمكنني الاتصال بأهلي واستئذانهم في مبيتي بالخارج.. سأقول إنني في مهمة عاجلة للجريدة استدعت أن أسافر خارج (القاهرة)، وليس بمقدوري العودة الآن. أهذا الحل أفضل؟

بقي (خالد) مقطّب الجبين، وقال (إيهاب):

- فكرة جيدة يا (مها).. نفّذيها من فضلكِ واريحينا من هذا الصداع.

هزت (مها) رأسها موافقة، ثم انتحت ركنًا تجري فيه اتصالها بأهلها، فالقى (إيهاب) نظرة على (خالد) المتضايق، ثم اتجه ليجلس ويعبث ببعض الأجهزة في الاستوديو، كأنما يشغل نفسه بأي شيء يلهيه عن الجدال معه.

أمّا (خالد) فقد نقّل عينيه بين رفيقيه لحظة، قبل أن يستدير إلى باب غرفة (حنان) المغلق، ويلقي عليه نظرة طويلة، قال بعدها:

- حسنًا.. لنرَ ما نهاية كل هذا.

وكانت لهجته توحي بأن الوضع لا يعجبه..

أو أن كل ما سمعه لا يريحه.. على الإطلاق.

****

تلوّنت السماء بتدرُّجات ألوان الشروق الرائعة في الساعات الأولى من الصباح وقبل مطلع الشمس، صانعة لوحة جميلة تولّد هدوءًا في النفس، وتدفع العقل إلى التوقّف عن التفكير ولو للحظات في الأمور الدنيوية للتأمُّل في عظمة الخالق عز وجل وبديع صنعه.

وبرغم ألوان الشروق الرائعة التي لوّنت الأُفُق، بدَتْ السماء نفسها -بعيدًا عن تدرُّجات الألوان- ملبّدة بالغيوم، بما يتوافق مع الرياح الباردة الشديدة، التي كان هبوبها طبيعيًا في هذا الوقت من العام على إحدى مدن (البحر المتوسط)، مما دفع (إنجي) لأن ترفع ياقتيّ معطفها الغالي الأنيق المصنوع من الفراء، كأنما تحمي به وجهها من الرياح الباردة، وهي تضم طرفيّ المعطف وتحكم إغلاقه عليها بالكامل؛ طلبًا للدفء.

وفي هذا الوقت المبكّر حيث عمّ السكون، وعلى أرض الشارع القديم المصنوعة من ذلك البلاط الصغير القديم، الذي يميّز بعض شوارع (مصر) القديمة، ظهر صوت كعب حذائها العالي واضحًا، وهي تتحرك في الشارع شبه الضيّق، لتقف أمام أحد البيوت القديمة به، فتفتح بوابته الصدئة، التي انزاحت بصرير مرتفع مزعج، جعلها تتلفت حولها؛ كأنما تتأكد أنها لم تلفت بالصوت الذي أحدثته انتباه أحد، قبل أن تدخل من فرجة مناسبة من البوابة، وتعيد إغلاقها وراءها.

كان وراء البوابة ما يشبه فناءً خارجيًا صغيرًا به حديقة ذات نباتات وشجيرات مُهملة تشابكت أغصانها وغلّف الغبار الكثيف جُلّ أجزائها، ليدلّ المنظر على أن أحدًا لا يعني بها منذ سنوات طويلة، الوقت الذي بدَتْ (إنجي) فيه شديدة التناقض بملبسها الفاخر الأنيق وسط المكان، الذي تجنّبَتْ باشمئزاز أن تحتكّ بأي شيء فيه، وهي تتحرك مخترقة غابة الشجيرات والنباتات، التي تحجب معظم الرؤية عمّا ورائها، لتقف في النهاية أمام المدخل المبني للبيت نفسه، وتطرق بابه الخشبي المتداعي المظهر بيدها التي غطّاها قفاز جلدي أسود، طرقات محسوبة جدًا، ثم تتلفت حولها وتنتظر.

ومرّ الوقت دون أي استجابة، مما دفع (إنجي) لطرق الباب مُجدّدًا بنفس الطرقات المحسوبة السابقة، وهي تغمغم:

- هلم! إنني أكاد أتجمّد هنا.. تبًا!

هذه المرة مضت لحظات فقط قبل ان تستمع إلى صوت ما خافت من وراء الباب، تلاه صوت واضح لإزاحة مزلاج، انفتح الباب بعده أمامها، ليكشف عن مدخل مُظلم وعن ذلك الشخص غير واضح المعالم أو الملامح الذي فتحه لها.

لكن (إنچي) لم تتردّد لحظة واحدة، وأسرعتْ تدخل على الفور، ليُغلق الباب من ورائها، وليغرق المكان كله في ظلام دامس هذه المرة، لا تعرف هي حتّى كيف وجد فيه مضيفها الطريق ليضيء مصباحًا واهنًا صغيرًا بإضاءة صفراء محمرّة، ظهر على أثرها بصعوبة المكان من الداخل.

كان المكان عبارة عن قاعة متوسطة للجلوس، ليس بها سوى بقايا أثاث قديم لا يصلح للاستعمال، ارتكن أغلبه إلى جدران متسخة ميقعة ببقع بنية دكناء ذات مظهر بشع غير مريح.

إلا أن (إنچي) كانت تُولي اهتمامها للشخص الواقف أمامها نفسه، والذي بدا طويل القامة، مُدثَّرًا بما يشبه غطاء صوفي قديم رمادي اللون، صنع منه ما يشبه العباءة الطويلة جدًا، التي لا تظهر جُلّ معالم جسده أو حتّى أطرافه، تبدأ من أعلى حيث ينسدل منها ما يشبه غطاء الرأس على وجهه ليخفي معظم ملامحه، في حين تأتي الظلمة لتحجب ما تبقّى منها تقريبًا، فلا تترك سوى الانطباع العام بنحافة الوجه، وتمتد العباءة حتّى تصل إلى تغطية القدمين نفسيهما.

وفي حركة دلّت على سابق معرفة به وأنها قد قابلته من قبل، لم تهتم (إنچي) بإلقاء نظرة طويلة على ذلك الشخص، لكنها قالت على الفور في توتر واضطراب:

- رأيتُ أنه من الواجب أن آتي الآن.

بصوت خشن النبرات وبلهجة باردة سألها مُضيفها:

- ماذا حدث؟

ابتلعتْ (إنچي) ريقها في توتر وبصوت مسموع، قبل أن تقول:

- (حنان).. لقد بدأتُ تعرف بعض الأشياء.

- مثل ماذا؟

هكذا سألها في اقتضاب وبرود، فقالت:

- مثل أن الكهف مثلًا كان نقطة أُختيرَت عن عمد، لإجراء الاتصال بذلك القصر الذي رأته، وأنني كنتُ أعرف بالضبط ما الذي أفعله طوال الوقت.

قال في برود:

- ولو.. ماذا بوسعها أن تفعل بما عرفتْ؟ حتّى لو حَكَتْ هذا، لن يصدّقها أحد.

قالت (إنچي) على الفور:

- المشكلة أنني أتساءل من أين عرفتْ؟

سأل في برود:

- هل تلمّحين إلى شيء بعينه؟

قالت (إنچي) في حذر كأنما تزن كلماتها جيدًا وهي تنطقها:

- يبدو لي كأن أحدهم يساعدها.

قال مضيفها المدثّر بالغطاء:

- مَن إذًا؟ لقد قتل (العسّاس) كل رفاقكما، وهو آخر مَن يمكن أن يساعدها، كلانا يعلم أنه فقط مضطر للإبقاء عليها موقّتًا، وأنه سيقتلها بلا تردُّد إذا ما انتفتْ حاجته إلى حياتها، فمَن إذًا؟

هزّتْ (إنچي) رأسها في حيرة، وهي تقول:

- لا أعرف!

صمت مضيفها الغامض لحظات، قبل أن يسألها:

- وكيف علمتِ أنت بما تعرفه؟

قالت (إنچي):

- كانت بيننا مواجهة إجبارية.

سألها في برود:

- ماذا تقصدين؟

قالت (إنچي):

- عندما هاجمنا (العسّاس) في فيلّا أهلي القديمة، وعندما كنتُ أهرب من المكان اصطدمتُ بها مصادفة، لكنني ضربتُها على رأسها ضربة شديدة بهاتفي كادت تتلف الهاتف نفسه، عسى أن يقتلها (العسّاس) ويريحني منها، لكنني فوجئتُ بعدها بساعات أن اللعينة لا تزال على قيد الحياة وتسعى في أثري، وللأسف تمكّنتْ مني بحيلة حقيرة.

بدت نبرات صوت مضيفها أبطأ وأكثر حذرًا هذه المرة وهو يسألها:

- هلا أخبرتني الآن بما حدث بأهم التفاصيل؟

ظهرت العصبية نوعًا في صوت (إنچي) وهي تقول:

- تلك اللعينة باغتتني وأفقدتني الوعي، وواجهتني بما تعرفه من المعلومات التي يُعَدّ أهمها أنني أعرف ماذا كنتُ أفعل بالضبط وأين كنتُ أوجّهها، لكنني أيضًا تمكّنتُ من خداعها، وأوهمتُها أن الفيلّا القديمة هي نفسها القصر الذي رأته، وأنني مستعدة للتعاون معها لإنهاء لعنة الوحش الذي يسعى لقتلنا، فما كان منها إلا أن صدّقتْ ما قلتُ بسذاجة غير عادية، حتّى أنني جعلتُها تقدّم نفسها قربانًا لـ(العسّاس) في الفيلّا مُستخدِمة في ذلك طريقة الاتصال التي عرّفتني أنتَ إياها و.....

فجأة انقض عليها مضيفها ليصفعها في عنف، صفعة بترتْ معها حديثها لتسقط أرضًا صارخة، وهي تسمعه يقول في غضب:

- أيتها الحقيرة!

وانحنى يجذبها من عنقها ليوقفها مُجدّدًا، وبدا من احتقان وجهها أنه يضغط بقبضته الواحدة على عنقها بقسوة، حتّى أنها رفعتْ يديها تمسك بيده، وهو يضيف بنقص الغضب:

- كيف جرؤتِ على فعل ما فعلتِ؟

تحشرج صوت (إنچي) وهي تقول مختنقة:

- رحماكَ يا سيدي.. إنني أختنق!

لكنه قال في غضب:

- لو كنتِ تذكرين أنني سيدكِ لما تصرفتِ وحدكِ بمثل تلك الحماقة دون الرجوع إليّ.

قالت (إنچي) بصوت مختنق للغاية، وهي تجاهد بلا جدوى لإبعاد قبضته عن عنقها:

- أرجوكَ! إنني أختنق.

تركها مضيفها لتسقط على الأرض وتسعل في قوة، وهي تقول من بين سعالها:

- سامحني.. لقد أعماني الغضب مما فعلتْه بي تلك الحقيرة و.....

قاطعها في غضب عصبي:

- وحاولتِ التخلُّص منها!

هزّت (إنچي) رأسها وهي تسعل قائلة:

- نعم.

- غبية!

هكذا قال في غضب قبل أن يشير إليها مضيفًا:

- وتدركين جيدًا مدى غبائكِ، لأنكِ تعرفين أن (الغسّاس) لم يكن ليؤذيها في هذا الوقت!

ثم تحرك ليجذبها من شعرها الأشقر في قسوة متابعًا:

- وتعرفين أيضًا أنها مُهِمّة بالنسبة لي حتّى أجد الخِتْم، ومع ذلك فقد خاطرتِ بقتلها!

لكن (إنچي) قالت في ألم دون أن تجرؤ على محاولة تحرير شعرها هذه المرة:

- لكنك قتلت (نشأت) كَيْلا تعرف!

دفعها في قسوة وهو يترك شعرها، قائلًا في غضب:

- بل قتلتُ (نشأت) وأخفيتُ جثّته كَيْلا يعرف هو!

تساءلَتْ (إنچي) وهي تحاول تمالك نفسها:

- (الغسّاس)؟!

- ومَن سواه أيتها الغبية؟

بدأت تستند إلى الأرض محاولة النهوض في صعوبة لكن ألمها أعجزها عن ذلك، وهي تسمعه يقول في غضب:

- (الغسّاس) مخلوق مخيف، لا يخاطر بمواجهته سوى مجنون أو جاهل بطبيعته، ومنذ بدأتْ حوادث القتل، علمتُ بدأ الاتصال بهذا العالم على نحو أو آخر، لذلك وتفاديًا لأن يلتقط أي إشارة ترشده إليّ، أخفيتُ جثّة (نشأت) بعد قتله الذي اضطررتُ إليه خشية أن يكشف جزءًا من الحقيقة.

وأشار إليها قائلًا في حِدّة:

- حفاظًا على حياتكِ الحقيرة التي لا تساوي شيئًا! لو كان (نشأت) قد ألقى بما لديه، لشكّ الجميع في أمركِ، ولربما تخلّصوا منكِ أو أصبح موقفكِ شديد الصعوبة والتبرير حينذاك.. والآن تسعين أنتِ إلى إفساد كل شيء لإرضاء رغبة حمقاء بداخلكِ في الانتقام وحسب؟

فوجئ بـ(إنچي) تسأله:

- لقد لجأتُ إلى (نشأت) لإضاعة المزيد من الوقت فحسب.. أمّا أنت، فقد كانت هناك فترة شهر كامل قبل أن يحاول (الغسّاس) الوصول إلينا وقتلنا.. لماذا لم تستغلّها للحصول على الخِتْم وإنهاء الأمر كله؟

قال بنفس الغضب:

- ومن أخبركِ أنني لم أفعل بحق الجحيم؟! لكن أحدًا لا يتوقّع الوقت الذي يستغرقه (الغسّاس) لتتبُّع أي اتصال، ومن جديد أنبّه عقلكِ الغبي أنه لا ينبغي أبدًا أن يصل إليّ (الغسّاس) قبل أن أجد الخِتْم، وإلا فلا قيمة لكل ما فعلناه منذ البداية.

(حنان) هي وسيلتنا للعثور على الختم.. هي سرقته من قصر (العسّاس)، وهو يبقي على حياتها فقط لأنها طرف اتصاله الوحيد بالختم؛ الوحيدة التي تحمل أثر الختم.

ولهذا أيضًا آمرك بالإبقاء على حياتها.

قالت (إنچي) في توتر:

- أنا أعرف كل هذا.. ما لا أفهمه بالفعل هو كيف اختفى الختم وقد استغللتها أنت نفسك في سرقته!

قال في غضب عصبي:

- نعم استغللتُها لسرقته، لكن حتَّى يكون الأثر الموجود بالقصر هو أثرها هي وليس أثري، لأنني كنتُ أعلم بما سيفعله (العسّاس) بعدها..

كان من المفترض أن أستغلَّها لسرقة الختم، ثم أنتزعه منها بعدها، وأتركها لتواجه مصيرها مع كل رفاقها المغفَّلين، ليمزِّقها (العسّاس) معهم إربًا، ولم يكن ليستطيع الاقتراب مني أبدًا بعدها.

لكن شيئًا ما خطأ قد حدث.. وعندما انتهى الاستجواذ، فوجئتُ بأن الختم ليس معها..

لا أعرف أين أخفتْه بحق الجحيم، لكنني كنتُ مُجبَرًا على الابتعاد عنها فورًا.

(العسّاس) لا يعرف ضحاياه إلَّا بعد النظر في أعينهم، ليعلم إن كانوا على صلة بأثر من يتتبعه أم لا، وبعد أن يتعرَّفهم ويتأكَّد من صلتهم به، إذا وجدهم لا يعرفون عن الختم شيئًا يتخلَّص منهم.

وفي نفس الوقت الذي بقيتُ فيه أنا مختفيًا في دائرة الظلّ، أحاول البحث عن وسيلة أعرف بها أين أخفتْ تلك اللعينة الختم، تضيعين أنتِ كل شيء وتعرضينني وتعرضين نفسكِ للخطر بكل حماقة!

قالت (إنچي):

- كنتُ أعرف أن القلادة تساعدني.. أنها السبب في كوني قد بقيتُ على قيد الحياة حتَّى الآن، وأن (العسّاس) لا يمكنه أن يراني أو يقترب مني ما دمتُ أرتديها.. لم أكُن أخاطر بحياتي أو بتعريضك للخطر.. لم أكن حتَّى أعرِّضها للموت؛ لم أكن أقصد أن.....

لم تكن قد نهضتْ من سقطتها على الأرض بعد، لذا كان من السهل أن يركلها مضيفها بقدمه وهو يقاطعها بغضب عنيف:

- لا تكذبي أيتها اللعينة! جرِّبي الكذب مع شخص آخر غيري.. أنا أكشف كل أساليبكِ الحقيرة... إياكِ أن تفعلي!

وعاد يجذبها من شعرها بقسوة، مضيفًا:

- لقد ضربتِها في المرة الأولى وأفقدتِها الوعي حتَّى يجدها (العسّاس) ويقتلها، وقلتِ هذا بلسانكِ القذر منذ قليل بالفعل، وعُدتِ لتستخدمي وسيلة قربان الدم آملة أن يقتلها (العسّاس) وقد قدَّمتْ له نفسها طواعية، لكن لا بُدَّ أنكِ علمتِ بعدها أن وسيلتكِ قد فشلتْ.

قالت (إنچي) في ألم:

- حسنًا.. أعترف أن هذا كان تفكيري.. اصفح عني يا سيدي.

قال في صرامة:

- سأصفح عنكِ عندما تنفِّذين أوامري فقط.

قالت (إنچي) على الفور بصوت متألم:

- سأفعل بالتأكيد.

عاد يترك شعرها ويدفع رأسها مُجدّدًا، وهو يقول:

- عظيم.

هذه المرة تحاملت على نفسها لتنهض واقفة، وقالت بصوت مرتجف:

- إن سمح لي سيدي، أنا أرغب في الانصراف الآن، وسأنتظر اتصالك وتنفيذ أوامرك في أي وقت.

قال مضيفها في صرامة:

- ستبقين هنا في (الإسكندرية)، حتَّى أتصل بكِ بالطريقة المعتادة.

- كما تأمر يا سيدي.

هكذا قالت (إنچي) في خوف، لكنه أضاف:

- تعلمين ما يمكنني أن أفعله بكِ إذا ما حاولتِ التلاعب يا (إنچي).. تعلمين أن عليكِ طاعتي في كل امرك به... تعلمين أن بوسعي تمزيقكِ إربًا لو شئتُ.. أن بمقدوري الوصول إليكِ أينما كنتِ.. أنتِ لم تعرفي كل الأسرار بعد.. وما تقدرين عليه لا يُعد قطرة في بحر مما أقدر عليه أنا.

قالت (إنچي) في توتر مرتجفة:

- أعلم يا سيدي.

تحرك مضيفها ليفتح لها الباب، وأشار لها بذراعه إلى الخارج قائلًا:

- انصرفي الآن.

هزت (إنچي) رأسها في توتر وهي تخرج من الباب، وقد تعلَّقتْ عيناها الخائفتان بمشهد واحد، زاد من رجفة الخوف بداخلها..

مشهد يَد المضيف التي برزتْ أطرافها للحظات وهو يشير إليها بالخروج من بيته..

تلك اليد المخلبية التي ذكَّرتْها بأن مضيفها وسيدها المخيف ليس بشريًا.. أبدًا.

****

تململ (إيهاب) في نومه على أحد المقاعد و(مها) تحاول إيقاظه، واستقبلَتْ أذناه صوتها الهامس وهي تقول:

- اصحَ يا "إيهاب".. إنها الثامنة.. لم أشأ أن أرفع صوت المتبِّه حتَّى لا أوقظ (حنان).

فتح عينيه في صعوبة وتطلَّع إليها لحظة، قبل أن يومئ برأسه موافقًا ويعود لإغلاقهما من جديد، لكنها عادت تهزّه في رفق وهي تقول:

- يا إلهي! لا تنم ثانية.. استيقظ أيها الكسول.. أنا بحاجة إلى إيقاظ (خالد) أيضًا.

لكن صوت (خالد) الذي لم يفارقه النعاس بعد، أتاها وصاحبه يقول:

- لقد استيقظتُ بالفعل يا (مها).

ابتسمت (مها) وهي تقول:

- آه.. نعم.. نسيتُ أن نومكَ خفيف جدًا؛ أي صوت قد يوقظك.. صباح الخير.

تثاءب (خالد) وهو يضع ظهر كفه على فمه، وقال:

- دعكِ من هذا الكسول، وابحثي لنا في ثلاجته العجيبة، عسى أن نجد شيئًا نأكله.. نحن بحاجة للاستعداد من أجل الذهاب إلى العمل.

تحركت (مها) نحو الثلاجة شديدة القِدم وهي تقول:

- هذا إذا كنتَ تعتبرها ثلاجة أصلًا.

غمغم (إيهاب) دون أن يفتح عينيه:

- لا يسخر أحد منكما من ثلاجتي.. لم يطالبكما أحد بشرائها.

قال (خالد):

- انهض يا رجل بدلًا من هذا الكسل ما دمتَ قد استيقظتَ.

بدا الضِّيق في صوت (إيهاب) وهو ينهض قائلًا:

- هذا هو عيب النوم مع المزعجين أمثالك؛ لا يستطيع المرء أن يحظى بالراحة أبدًا.

- كُفَّ عن التفلسف وانهض.

- لا يوجد في ثلاجتك ما يؤكَل.

هذه كانت من (مها)، فأضاف (خالد):

- لا بُدَّ أنها خاوية كرأسه.

التفت إليه (إيهاب) وقال:

- حقًّا؟ هل أصبحتَ تجيد المزاح وتستسيغه فجأة يا ذا الرأس الممتلئ؟ أخبرني بالله عليك يا رجل، ما السر وراء هذا؟ إنك تتفاذى المزاح في العادة، كأنما تحصل على راتب من الدولة مقابل العبوس والنكد.

ضحكت (مها) وهي تقول:

- لا فرصة لك يا (خالد) في التفوّق على (إيهاب) في هذا المضمار.

قال (إيهاب):

- نعم، أخبريه يا (مها).. يا إلهي.. عيناي على غير ما يرام.. خُيِّل إليّ أنه يبتسم.. لا بُدَّ أن أزور طبيبًا لفحص نظري في أقرب وقت.

لم يكد ينهي عبارته، حتَّى فوجئ الجميع بصوت أنثوي يقول:

- صباح الخير.

التفت الثلاثة إلى مصدر الصوت، لتطالعهم (حنان) وقد أشرق وجهها الجميل بابتسامة جذّابة، واقفة بباب غرفتها، وقد عدّلت من هندامها ومظهرها، الشيء الذي جعل (إيهاب) يطلق صفير إعجاب طويلًا، وهو يقول:

- يا إلهي! هكذا يكون الصباح الجميل.

اتسعت ابتسامة (حنان) وقالت:

- أشكركَ على مجاملتكَ الرقيقة.

وأدارت عينيها في وجوههم مضيفة:

- الواقع أنني قدّرتُ الاستيقاظ في مثل هذا الوقت، حتَّى لا أكون سببًا في تأخيركم على عملكم.

وأشارت إلى (إيهاب) متابعة:

- لكن بعد سماع حديثكم عن الإفطار وبعد إطراء الأستاذ (إيهاب)، أجدني أرغب في التطوُّع بدعوتكم إلى الإفطار أيضًا.

قالت (مها) في شيء من الحرج:

- أخشَى أن نكون قد أزعجنا نومكِ.

قالت (حنان) بابتسامة عريضة:

- مُحال! لقد سمعتُكم وأنتم تستيقظون.. كنتُ قد استيقظتُ.

واتجهَتْ إلى الباب وهي تردف:

- الان.. دعوني أذهب لإحضار الإفطار، كيْلا أكون سببًا في تأخيركم أكثر.

وثب (إيهاب) من مقعده قائلًا:

- انتظري إذًا.. سآتي معكِ.. من غير اللائق أن تنزلي وحدكِ.

هتف به (خالد) في دهشة:

- الآن تأخذك الهمّة والنشاط؟!

قال (إيهاب) وهو يبحث عن حذائه على عجل:

- وهل تجد حافزًا أفضل؟ أم أنك تتصوَّر أن الشجار معكَ شيء رائع يتمنَّى المرء أن يستهِلّ به يومه؟

وأضاف وهو يضع الحذاء في قدميه بالفعل بسرعة:

- الوجه الحَسَن يا ذا الوجه العابس.. انظر لوجهكَ في المرآة وستعرف السبب.

وفي الوقت الذي قطَّب فيه (خالد) متضايقًا ولم يسَع (مها) إلا أن تضحك ضحكتها القصيرة، أشاحت (حنان) بوجهها الذي تورَّد خجلًا وهي تبتسم في حياء وتفتح الباب و....

- أتعبتني حقًا إلى أن عثرتُ عليكِ!

برغم الصوت الأنثوي الهادئ، ارتجف جسد (حنان) بشدة وهي تتطلَّع في توتُّر وحيرة إلى قائلة هذه العبارة، التي اقترب الرفاق الثلاثة (خالد) و(إيهاب) و(مها) من الباب ليروها، فوقفتْ أبصارهم على امرأة تبدو في أوائل العقد الثالث من العمر، ذات وجه جميل مريح، عيناها الواسعتان السوداوان تمنحان وجهها جاذبية مُحبَّبة، وترتدي ثوبًا أبيض طويلًا يبدو من الحرير اللامع، تماشَى بشدة مع حجاب شعر من نفس لون ونفس قماش ثوبها.

وكانت تبتسم ابتسامة هادئة، لم تفلح في إزالة الكثير من توتر (حنان) وهي تسألها:

- مَن أنتِ بالضبط؟

قالت ذات الثوب الأبيض في لهجة هادئة:

- اسمي (منّة الله).

قالت (حنان) في حيرة وهي تتطلَّع إليها:

- لا أذكر أنني أعرف مَن تَدعَى بهذا الاسم.. وعلى أية حال ماذا تريدين؟ ولماذا أنتِ هنا؟

والغريب أنه برغم توتر (حنان) فقد تراجعت لتفسح لها المجال كأنما تدعوها إلى الدخول، وهو الشيء الذي فعلَته (منّة الله)، فدخلَتْ في هدوء، وهي تجيب بابتسامة عذبة:

- بالتأكيد أنتِ لن تذكري اسمي، فلم يسبق لكِ أن عرفتِه من قبل، برغم أن هذا ليس لقاءنا الأول..

أمّا ماذا أريد ولماذا أنا هنا، فلقد سبق وأن أخبرتُكِ بالفعل.. جبهتكِ تمثّل الجبهة الأضعف في المعركة يا (حنان)، في حرب ضارية ربما لا تدركين بالضبط القوة الحقيقية لأطرافها.

تراجعتْ (حنان) بدهشة غير مصدّقة، وهي تقول:

- مستحيل.. هذا الصوت! يا إلهي! كيف لم ألاحظ هذا؟ أنتِ صاحبة الصوت التي كنتُ أراها في أحلامي!

هزّتْ (منّة الله) رأسها إيجابًا، وقالت بصوتها الهادئ الذي لا يعرف الانفعال طريقًا إليه:

- تمامًا.

تبادل الرفاق الثلاثة النظرات، وتساءل (خالد) في دهشة وحيرة:

- هل لنا أن نفهم ماذا يدور هنا بالضبط؟!

ودّت (حنان) أن تقول شيئًا وهي تشير إلى (منّة الله)، لكن الكلمات لم تسعفها، فلم تجد ما تقول..

أمّا (منّة الله) نفسها فحافظت على ابتسامتها وصوتها الهادئين:

- لقد بذلتُ جهدًا كبيرًا لأصل إليكِ وألتقيكِ في عالم الواقع، لكن ما فعلتُه يستحق، فالقادم من الأحداث قد لا يكون في صالحك أنتِ أو رفاقكِ هؤلاء إذا ما بقيتم وحدكم.. أبدًا.

وبرغم صوتها الهادئ وابتسامتها العذبة وملامحها المريحة، كان هذا الكشف الذي صرّحتْ به (منّة الله) صاحبة الصوت الهادئ شيئًا يدعو للقلق والخوف..

ويعكس جزءًا من الهول الذي ينتظرهم..

ذلك الهول الذي تؤكّد لهم الآن -برغم أن بعض جوانبه لا تزال غامضة مجهولة- أنه سيكون أفظع من كل ما كان، خلال الأحداث القادمة.. بكثير جدًا.

****

(نهاية الجزء الأول،

ويليه الجزء الثاني والأخير -بإذن الله- "الغسّاس")